بلاغة التشبيه
فى شعر عروة بن الورد

الدكتور
على محمد حميد حماد

مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة العربية
فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

المقدمة

كان عروة بن الورد شاعرا صعلوكا، وكان يشاركه فى صفتى الشعر والصعلكة كثير من شعراء الجاهلية الذين سكنوا بلاد الحجاز، بيد أنه امتاز عن غيره من الشعراء الصعاليك بصفات خاصة جعلت له حظا كبيرا من الشهرة فى تاريخ الرجال.

كان عبسيا من قبيلة عبس التى أنجبت عنترة بن شداد وغيره من الزعماء، وقد ظهرت صفات قبيلة عبس واضحة فى شعر عروة بن الورد، وكان قريبا من عنترة فى كثير من الصفات حتى فى أسلوب شعره، وفى معانيه .

تمتع عروة بن الورد بكثير من صفات النبل والشهامة التى جعلت كثيرا من أهل زمانه وغيرهم يأتمون به، فقد ذكر أبوالفرج الأصفهانى أن عمر بن الخطاب (ﷺ) قال للحطيئة: كيف كنتم فى حربكم؟ قال: كنا ألف حازم قال: وكيف؟ قال: كان فينا قيس بن زهير وكان حازما وكنا لا نعصيه وكنا نقدم إقدام عنترة، ونأتم بشعر عروة بن الورد وننقاد لأمر الربيع بن زياد[١] .

كما نال عروة شهرته عند الكبار المشاهير فقد ورد أن معاوية (ﷺ) قال: لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[٢].

وقال عبدالملك بن مروان: ما يسرنى أن أحدا من العرب ولدنى ممن لم يلدنى إلا عروة بن الورد .

وقال: من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد[٣].

---

(١) الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ٣ صـ٥٨ طبع مؤسسة الأعلمى - بيروت - ط أولى ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

(٢) السابق جـ٣ صـ٥٩ .

(٣) السابق جـ٣ صـ٦٠ ويراجع الشعر والشعراء جـ٢ صـ٦٧٥ ط دار المعارف .

وإعجاب كثير من الناس بعروة بن الورد كان راجعا إلى صفات حميدة كانت فيه، شهدت ببعضها "سلمى" ــ إحدى زوجاته ــ التى كناها بأم وهب حيث قالت له: "يا عروة أما إنى أقول فيك وإن فارقتك الحق: والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يدا وأحمى لحقيقة....) [١] .

لقد كان عروة بن الورد فارسا جوادا عفيفا قليل الفحش وهذه صفات إنسانية سامية فى كل زمان ومكان وهى التى جعلته صديقا مخلصا للمجد فقد تم اللقاء بينهما واستمر طيلة حياة عروة وما زال المجد وفيا له بعد أن فارق عروة بن الورد الحياة.

وصورة الصعاليك ــ فى أذهان الناس ــ غامضة غير مشرقة، محجوبة المعالم، تغشاها سحب دكن تخفى وراءها كثيرا من النور والضياء[٢] .

والصعلوك هو: الفقير الذى يواجه الحياة وحيدا بعد أن سلبته كل ما يستطيع أن يعتمد عليه فى مواجهة مشكلاتها، فالصعلكة تعنى فقرا يغلق أبواب الحياة فى وجه صاحبه .

والشعراء الصعاليك هم الذين لم يستسلموا للفقر ولكن خرجوا إلى دائرة الغزو والإغارة للنهب والسلب، وكانوا يسمون ــ أيضا ــ بذؤبان العرب؛ لأنهم كانوا كالذئاب، فى تشابه أسلوب العيش وفى الطبيعة

---

(١) تراجع قصة "سلمى" فى ديوانه صـ٣٦ : ٤٤ نشر دار الكتاب العربى ط الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م ويراجع الشعر والشعراء جـ٢ صـ٦٧٦ والأغانى جـ٣ صـ٦١ .

(٢) يراجع الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د/ يوسف خليف صـ١٣ طبع دار المعارف .

الشخصية، وكانوا شطارا يتلصصون أى: تتكرر سرقتهم، فالصعلوك إذا هو: الفقير الذى تجرد للغارات(١).

وعروة بن الورد فى نظر النقاد صعلوك شريف؛ استطاع أن يرفع الصعلكة ويجعلها ضربا من ضروب السيادة والمروءة؛ فهو لم يسع لنفسه فحسب بل كان يسعى ــ قبل كل شىء ــ للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم البؤس والشقاء، ولم يكن يغير على كريم يبذل ماله بل كان يغير على البخلاء الذين لا يمدون يد العون للمحتاج ، وبهذا أصبحت الصعلكة عنده ضربا من ضروب النبل الخلقى، وكأنها أصبحت صنوا للفروسية، وقد وصفه الأصمعى بأنه : شاعر كريم(٢).

قيل فى وصفه إنه: أبوالصعاليك، وكان يسميهم عياله، ولقب بهم فقيل: عروة الصعاليك، وعبر عنهم بالإخوان(٣) .

قال صاحب الأغانى: "كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف وكان عروة بن الورد ــ يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ويكنف عليهم الكنف ويكسبهم، ومن قوى منهم ــ إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته-خرج به معه فأغار وجعل لأصحابه الباقين من ذلك نصيبا حتى إذا أخصب الناس وألبنوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى فلذلك سمى عروة الصعاليك"(٤).

---

(١) يراجع الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى صـ٢٣ : ٢٨ ويراجع العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ط دار المعارف من صـ٣٧٥ : ٣٧٧ وتنظر المادة فى اللسان والقاموس المحيط .
(٢) يراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٧ : ٤١ .
(٣) سيأتى بيان ذلك فى شعره .
(٤) الأغانى جـ٣ صـ٦٣ .

وفى الأغانى قصص كثيرة تظهر كرم ونبل هذا الصعلوك وأنه كان يرق لفقراء بنى عبس ويخرج إليهم حين يسمع استغاثتهم به وهم جلوس أمام بيته ينادونه: يا أبا الصعاليك أغثنا، وذلك حين يصيبهم الجدب، ويهلكهم الفقر، ويقتلهم الجوع[١] .

ومع هذه الصفات الخلقية النبيلة التى تجعل لهذا الشاعر قيمته وتقديره فى قلوب الناس،كان أسلوبه رقيقا مميزا،وكان معناه قريبا واضحا، فهو يختلف عن سائر الصعاليك بهذه الميزة الأسلوبية الرائعة[٢].

وكأن عروة بن الورد كان يخاطب كل الناس مع اختلاف أجناسهم وتباعد أزمانهم وتفرق أوطانهم، إنه يخاطب الروح والوجدان والضمير فى عقول الحكماء، وضمائر الأغنياء!!

إننى شديد الحاجة إلى التعرف على شخصية هذا الفقير الكريم الشجاع العفيف الذى نال إعجاب الخلفاء وإكبار العلماء، وإذا كان تراب الأرض قد أبلى جسده، فإن شعره قد أبقى ذكره .

وأنا أحاول فى هذا البحث أن أتعرف على أفكاره ومعانيه وألفاظه ومبانيه، وسأنقل نفسى إلى بلاد الحجاز وإلى ذلك الزمن القديم الذى كان يعيشه عرب الجاهلية، وأهل السروات ونجد وتهامة والطائف ومكة والمدينة وتلك الأماكن التى ورد ذكرها فى شعر عروة بن الورد بعد أن عشت فيها وأنا معار إلى المملكة وتنقلت بين جبالها فى الجنوب من الباحة إلى تهامة والطائف ومكة والمدينة وغيرها من أماكن عاش فيها الصعاليك بل ولد فيها بعضهم ودفن فيها البعض الآخر وبعد أن سألت أهل غامد وزهران وغيرهم ممن يسكنون الجنوب سألتهم عن "عضاه اليستعور" وعن"ماوان"وغير ذلك مما ورد فى شعر عروة بن الورد[٣].

---

(١) يراجع ذلك فى الأغانى جـ٣ صـ٦٠ وغيرها .

(٢) يراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٣٠ .

(٣) شاء الله أن أقضى مدة الإعارة إلى المملكة العربية السعودية فى الجنوب وبالتحديد فى "الباحة" وتنقلت فى كثير من الأماكن التى عاش فيها الصعاليك .

وسأحاول وأنا أدرس أسلوب عروة أن أستحضر بؤس الفقراء مع سرف الأغنياء.

وشعر عروة بن الورد جدير بدراسته من كل جوانبه وتأمل كل لون بلاغى فيه، ولكننى آثرت دراسة "بلاغة التشبيه فى شعر عروة بن الورد"؛ لأننى وجدت صور البيان كثيرة الدوران فى شعر عروة، ثم وجدت التشبيه أكثر صور البيان وقوعا فى شعره .

والتعرف على خصائص وسمات الصورة التشبيهية عند هذا الشاعر الجاهلى الكبير يثرى مكتبة البلاغة العربية فيضيف إليها كثيرا من الشواهد البلاغية ويكشف عن كثير من لطائف بلاغة العرب.

وجعلت البحث فى: مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة .

ذكرت فى المقدمة تعريفا موجزا بالشاعر ومعنى الصعلكة وأهمية البحث وقيمته .

وكان الفصل الأول فى: بلاغة التشبيه فى حديثه عن الصعاليك.

وجاء الفصل الثانى فى: بلاغة التشبيه فى حديثه عن المرأة.

أما الفصل الثالث فكان فى بلاغة التشبيه فى معان متفرقة من شعره.

وأنهيت البحث بالخاتمة، وذكرت فيها ملخص البحث وأبرز نتائجه ثم أشرت إلى المصادر والمراجع.

والله أسأل أن يرزقنا فى أعمالنا التوفيق والسداد ، وأن يجعل أعمالنا منصرفة إلى رضاه مقبولة عند من اصطفاه.

الفصل الأول
بلاغة التشبيه فى حديثه عن الصعاليك

نال الصعاليك شهرة واسعة من الذكر فى شعر عروة بن الورد، ولا غرابة فى ذلك؛ فهو صعلوك مثلهم بل هو: أبوالصعاليك ــ كما ذكرنا سابقا ــ وكان خبيرا بهم، محبا لهم، واهبا حياته لإسعادهم، ودليل ذلك قوله:

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ∴ وأحسو قراح الماء والماء بارد[١]

فهو يعنى أنه يقسم الطعام الذى هو فى أشد الحاجة إليه يقسمه فى أجسام أولئك الصعاليك البائسين، ويكتفى بشرب الماء القراح أى: الذى لا يخالطه لبن ولا غيره، يكتفى بذلك من أجل الصعاليك حتى فى أيام الشتاء والبرد الشديد وهذا أشد على النفس، فقد عرف عروة بن الورد حقوق الأبوة التى كان ينادى بها فى قولهم: يا أبا الصعاليك، ولم يؤثر نفسه عليهم بل كان طيلة حياته واحدا منهم[٢] .

وأول ما يطالعنا من شعره الموجود فى ديوانه فى حديثه عنهم قوله[٣]:

١ـ وسائلة أين الرحيل؟ وسائل ∴ ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه؟
٢ـ مذاهبه: إن الفجاج عريضة ∴ إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
٣ـ فلا أترك الإخوان ما عشت للردى ∴ كما أنه لا يترك الماء شاربه
٤ـ ولا يستضام الدهر جارى ولا أرى ∴ كمن بات تسرى للصديق عقاربه

إنه يخبر عن كثرة من سألوه عن مقاصده وتوجهاته وإنه ليتعجب من كثرة هذه الأسئلة التى ما كان ينبغى أن توجه إلى هذا الصعلوك المشهور أمره المعروفة أحواله.

---

(١) ينظر ديوانه صـ٣٥ .
(٢) يراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٢٤ .
(٣) ينظر الديوان صـ٢٠ .

وفى هذا البيت لطائف أسلوبية تحتاج إلى تأمل منها: أنه بدأ البيت بصفة المؤنث والتقدير: وأنثى سائلة، أو: وامرأة سائلة، أو: ونسوة سائلة، والواو هنا هى واو "رب" وهى دالة على التكثير كما هو واضح من المقام والسياق الذى أورد فيه التعجب.

ثم قال بعد ذلك: "وسائل" فأخر المذكر، وافتتاح البيت بهذه الطريقة الأسلوبية يدل على أهميته عند النساء والرجال جميعا ومن أجل ذلك أكثروا عليه من أسئلتهم الدالة على اهتمامهم، وقدم السائلة ــ هنا ــ لأنها أهم؛ فقد تكون زوجه التى تحب حضوره وقربه وقد تكون أمه التى تشفق عليه من كثرة مغامراته وقد تكون أخته التى يشرفها قربه ويرفع من شأنها مجده أو يكون السؤال واردا من جميع تلك النسوة وغيرهن ويجوز أن يكن قد كررن ذلك.

وعلى كل حال فالسؤال عن رحيله هو الأهم وليست السائلة؛ لأنه سيترك فراغا كبيرا عند الجميع.

والسؤال هنا حقيقى؛ فالسائلة وكذلك السائل لا يعلمون شيئا عن قراره الذى اتخذه ولا يدرون إلى أين يتجه .

وقد رد عليهم فى البيت الثانى ردا عجيبا محيرا فلم يحدد لهم جهة الرحيل وإنما تركها سرا خاصا به، فهو راحل إلى جهة يجهلونها وقد يجهلها هو أيضا!

وعروة ينكر عليهم مثل هذا السؤال فى قوله: "ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه"؟ وطريقته الأسلوبية تدل على فطنته وعلى أنه أعطى الصعلكة حقها، وذلك فى قوله: "ومن يسأل الصعلوك" فيذكر الصعلكة التى من شأنها الرحيل الدائم والتخفى والتستر فى إعلان الجهة ولذلك أورد "مذاهبه" جمع تكسير على صيغة مفاعل ومفردها مذهب ولم يستعمل المفرد فى هذا المقام .

والمذهب هو المقصد والطريقة والمعتقد الذى يذهب إليه، ومـــادة "ذهب" فيها معنى السير والمرور والإزالة ولذلك يقال: ذهب به أى: أزاله فالمذاهب إذا مقاصد وطرق يسير فيها أصحابها وهم يعتقدونها، وهـــذا اختيار دقيق من عروة بن الورد يدل على اقتناعه التام بمذهب الصعلكة واختياره له دون سواه(١) .

ودلالة هذا اللفظ وإيراده جمعا يوضح لنا قدرة عروة بـــن الـــورد على أن يتجه فى كل مقصد وكل طريق وكأنه كان يدع نفســـه لتمضـــى حيث شاءت مهما كانت المخاطر؛ فهو واثق من قدرته ومقتنع بغايتـــه، ويدل الجمع أيضا على أن الخيارات أمامه كثيرة، وقد أكد هـــذا المعنـــى بقوله: "إن الفجاج عريضة" فهو يمضى فى كل اتجاه يحقق له الرزق من أولئك الأغنياء البخلاء.

وهذا الجمع فى "مذاهبه" يوحى بالسرية التامة التى كان يحـــرص عليها الصعاليك سواء أكان ذلك فى أماكن إقامتهم أم كان يتعلق بوقـــت وكيفية إغارتهم، ولعل هذا هو السر فى شهرة الصعاليك وتخوف القبائل منهم وقد صرح عروة بهذا المعنى فى قوله:

إذا بعـــدوا لا يـــأمنون اقترابـــه ∴ تشـــوف أهـــل الغائـــب المتنظـــر(٢)

وقول عروة : "مذاهبه إن الفجاج عريضة" جواب عـــن ســـؤالهم، وارد على طريقة الأسلوب الحكيم، فكان الأولى بهـــم أن ينظـــروا فـــى خيرات الأرض ويدركوا حق الفقير فى البحث عن رزقه لا أن يتعجبـــوا من رحيله.

---

(١) تراجع المادة فى اللسان ويراجع الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى صـ٢٣٦ طبع المكتبة التوفيقية .

(٢) ينظر ديوانه صـ٥١ وسيأتى بيان ذلك فى البحث.

والفجاج : جمع فج وهو الطريق الواسع بين جبلين، ويطلق أيضا على المضرب البعيد، وكل طريق بعد فهو فج[١] .

وتأمل قوله: "عريضة" وما يوحى به هذا اللفظ من السعة التى تقابل ضيق البشر وبخلهم الشديد إنه يسير فى الطرق الواسعة البعيدة لعله يجد فيها رزقا يقوته بعد أن ضن عنه الأغنياء.

وعبر بـ: إذا الشرطية فى قوله: "إذا ضن عنه بالفعال أقاربه"؛ لأن هذا أمر ثابت وموجود بكثرة وليس نادرا أو مشكوكا فيه .

فقد وجدهم يضنون بالفعال وهو فى أشد الحاجة للفعل لا للقول.

وقوله يدل على أنهم كانوا يجودون له بالأقوال ويحرمونه مما هو فى أشد الحاجة إليه وهم "أقاربه" وحين يكون الحرمان من القريب تكون مرارته أشد ووقعه أوجع .

ويلاحظ الباحث فى الشعر الجاهلى عموما كثرة التوجع والتألم النفسى الذى أشار إليه الشعراء الجاهليون من أقاربهم، وهذا دليل واضح على فساد الحياة الاجتماعية فى ذلك الزمن القديم لكثرة ما ساد فيها من ظواهر الفساد، وقد عالج القرآن الكريم هذه المشاكل النفسية المؤلمة[٢] .

وقول عروة السابق يكشف لنا عن السبب الحقيقى فى وجود الصعلكة وكثرتها فى العصر الجاهلى.

يقول د/ يوسف خليف: "والمجتمع البدوى من ناحيته الاقتصادية بسيط التكوين، يتكون من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين: طبقة أصحاب الإبل، أو أرباب المخائض كما يسميهم بعض الشعراء، وطبقة الصعاليك،

---

(١) تراجع المادة فى لسان العرب.

(٢) تناول الباحث بيان ذلك فى أثناء حديثه عن عادة الظلم فى بحث له تحت عنوان "الصور البيانية للعادات الجاهلية فى المعلقات السبع".

والناظر فى المجتمع البدوى يلاحظ لأول وهلة أن الفرق الاقتصادى بين هاتين الطبقتين كان بعيدا بقدر ما كان الفرق النفسى بينهما قريبا، ومن هاتين الظاهرتين المتناقضتين: ظاهرة البعد الاقتصادى وظاهرة القرب النفسى نشأت ظاهرة الصعلكة"[١] .

فإذا كان أقارب عروة بن الورد الأغنياء قد ضنوا عليه بالمال وهو رجل عزيز النفس عالى الهمة فكيف يتحمل العيش وسطهم؟!

ثم انتقل فى البيت الثالث إلى ذكر اهتمامه بالصعاليك فصورهم فى صورة بيانية رائعة الجمال وذلك فى قوله: "فلا أترك الإخوان" وهو يقصد بالإخوان: الصعاليك .

وفى تعبيره: استعارة تصريحية أصلية؛ حيث شبه الصعلوك بالأخ، ثم تناسى التشبيه وصرح بالمشبه به كما هو معلوم فى الاستعارة التصريحية والجامع بينهما هو الحب والإيثار والملازمة، والتعبير عن الصعاليك بالإخوان فيه كناية عن موصوف كما هو واضح حيث ينتقل الذهن من الملزوم وهو المعنى المعجمى الاجتماعى لكلمة "أخ" إلى اللازم وهو: المعنى الثانى الذى أراده الشاعر من وراء تعبيره بهذا اللفظ.

واختياره لفظ "إخوان" ــ هنا ــ فيه دليل على حبه الشديد لهم، وملازمتهم له، وأنهم جديرون بما يحمله هذا اللفظ من دلالات وإيحاءات.

فعروة بن الورد لا يترك الصعاليك مهما كانت المخاطر ولن يبخل عليهم بشىء يملكه، ودليل ذلك قوله: "كما أنه لا يترك الماء شاربه" وهى صورة تشبيهية فى غاية الدقة، دالة تمام الدلالة على تأنيه وحسن اختياره، فهو يشبه ملازمته لهم وعدم استغنائه عنهم بحاجة العطشان إلى الماء وعدم استغنائه عنه.

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى صـ١٤٥ ، ١٤٦ .

والشارب هنا بمعنى العطشان، وإطلاق الشارب على الظمآن مجاز مرسل بعلاقة اللزومية أو المسببية وهى صورة تدل ــ كما ذكرت ــ على أنه أحسن التأمل ودقق فى اختيار ألفاظه.

والضمير فى "أنه" ضمير الشأن، وهو لا يستعمل إلا فى المعانى ذات القيمة والشأن حيث ينبه الذهن ويوقظ النفس لتلقى الأخبار وهى مشتاقة ومترقبة(١).

ولا أوافق المرحوم الدكتور يوسف خليف فى تعليله لكثرة التشبيه فى أشعار الصعاليك فى قوله: "ولعل التشبيه أقوى الألوان الفنية التى اعتمد عليها الشعراء الصعاليك فى شعرهم، وهو لون يتفق تماما مع هذه السرعة الفنية التى لاحظناها؛ إذ أن الصنعة الفنية فى التشبيه صنعة سريعة لا تتجاوز عقد موازنة بين أمرين يشتركان فى معنى، وهو ــ من هذه الناحية ــ غير الاستعارة مثلا التى تعتمد على لون من الصنعة الفنية العميقة المتأنية، وفى صنيع القدماء من علماء البلاغة ما يشعر بهذا،فقد جعلوا التشبيه المرحلة الأولى التى تبنى عليها الاستعارة.."(٢).

وإن كنت أرى أن ما ذكره، وعلل به لكثرة التشبيه فى أشعار الصعاليك ينطبق على صور التشبيه القريبة المبتذلة التى تعتمد على التقليد واتباع الشائع المشهور عند الناس، والتى لا تحتاج إلى تدبر وتأمل فى الغالب.

أما التشبيهات الواردة فى أشعار الجاهليين، فهى صور فريدة، بل هى صور بكر؛ لأنهم أول من فتق عن أكمامها.

---

(١) يراجع شروح التلخيص جـ١ صـ٤٥٠ : ٤٥٢ وخصائص التراكيب د/ محمد أبوموسى صـ١٨٨ .

(٢) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى صـ٢٩٣، ٢٩٤ .

وقد أشاد شيخ البلاغة العربية وإمامها الشيخ عبدالقاهر الجرجانى بالتشبيه وبين قيمته وأثره وتأثيره فى النفس خاصة التمثيلى منه، إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى فى معرضه، وتحدث الإمام عبدالقاهر عن التشبيه البعيد الغريب وبين أسباب الغرابة فيه، واستدل على ذلك بكثير من الشواهد الشعرية التى كانت تستحيل فيها رحمة الشعراء إلى حسد واستدل على ذلك بالحكاية المعروفة بين عدى بن الرقاع وجرير ثم ذكر ــ رحمه الله ــ إعجاب هذا التشبيه للناس وإيناسه لهم أنه يجمع بين الشيئين المختلفين فى الجنس ولا يكتفى بهذا الجمع فقط، بل أنه يحصل بإزاء هذا الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون الاتفاق فى أتم وأبرز جمع بين الصور البلاغية فيحصل من هذين الأمرين أقصد: شدة الائتلاف فى شدة الاختلاف ، روائع الحسن ولطائف البيان[1] .

وتشبيهات القرآن الكريم خير شاهد على دقة وبلاغة الصورة التشبيهية ولعل ذلك سبب كثرته فى القرآن الكريم وفى البيان النبوى.

والمتأمل يرى أن الصورة التشبيهية فى بيت عروة بن الورد السابق نادرة عجيبة وبديعة غريبة فمن منا يأتى فى ذهنه شوق العطشان للماء إذا ذكر ملازمة الصديق ومحبته، أليست صورة نادرة تحتاج إلى طول تأمل؟!

وراجع عبارة عروة مرة ثانية لتتأمل قيمة المشبه به عنده وأنه ذو شأن ودليل ذلك أنه أتى بضمير الشأن والقصة فى قوله: "كما أنه" ونحن نستعمل فى أساليبنا مثل هذا التركيب بدون التوكيد وضمير الشأن فنحن قد نقول: كما لا يترك الماء شاربه، فلا نأتى بأن المؤكدة ولا بضمير الشأن ولا نتنبه إلى هذه الفروق الدقيقة ولا نتأمل كلام شعرائنا

---

(١) ينظر كلام الإمام عبدالقاهر ببيانه وتفصيله فى أسرار البلاغة جـ١ صـ٢٢٥ : ٢٨٢ ثم ينظر فى الجزء الثانى من صـ١٨ : ٥٢ .

القدامى، وهذه الدقة الأسلوبية أعنى ذكر "أن" أو "إن" المؤكدة وردت فى البيت السابق فى قوله: "إن الفجاج عريضة" فذكر "إن" فى هذا التركيب أضفى على الأسلوب ما أضفى من الروعة والجمال والإحكام.

وقد تنبه الإمام عبدالقاهر ــ رحمه الله ــ إلى قيمة الربط بإن فى الكلام وكيف يفترق الأسلوب إن حذفت من الكلام عنه إن ذكرت، وذكر فى ذلك صورا لطيفة ونادرة، ثم قرر فيها أنه لابد من "إن" ولا سبيل إلى إسقاطها لأنك إن أسقطها أفضى ذلك بك إلى شىء شنيع، ثم ذكر مزايا هذا الحرف وسحره فى الربط بين الجمل خاصة حين تقع مع ضمير الشأن[1].

ثم أتى عروة بن الورد فى البيت الرابع بصورة بديعة طريفة وذلك فى قوله:

ولا يستضام الدهر جارى ولا أرى ∴ كمن بات تسرى للصديق عقاربه

فهو ينفى أن يقع ضيم أو جور أو تعدى على جاره مدى الدهر وهو يعنى: مدة حياته بينهم، وقد بنى يستضام للمجهول ليثبت بهذه الطريقة الأسلوبية الموجزة أنه لا يقع على جاره ضيم مطلقا لا من عروة ولا من غيره، وفى لفظ جارى ما يوحى باحترام عروة لجيرانه وتقديره لحقوقهم.

ثم أكد هذا المعنى بقوله: "ولا أرى كمن بات تسرى للصديق عقاربه" فهو ينفى أن يشبه حاله مع جيرانه وأصحابه حال من "بات تسرى للصديق عقاربه"، وليس مع المرء ــ فى الحقيقة ــ عقارب تسرى للصديق، وإنما استعار الشاعر ــ هنا ــ العقارب للنميمة والعداوة، حيث صور الأحقاد والعداوات التى تقع من بعض الأصدقاء

---

(١) راجع تفصيل وبيان ذلك فى دلائل الإعجاز صـ٣١٧ : ٣٢٧ .

بالعقارب التى يؤلم لسعها، ويقتل سمها، وقد رشح هذه الاستعارة بقوله : "تسرى" فهى من لوازم المستعار.

ويدل كلامه على خبرته بأحوال الناس، وأنه مع ذلك لم يسلم من شرهم وكيدهم، واختار "بات" دون أصبح أو صار أو غيرهما مما يدل على هذا المعنى؛ لأن الليل فى الغالب هو زمن وقوع الفجائع والمفاجئات المهلكات وأن إحكام الكيد والمكر فيه أقوى وأكثر.

ويدل كلامه أيضا على أنه نقى السريرة محمود الجانب لا يضمر عداوات ولا يخدع أو يخون أصدقاءه الصعاليك الذين سماهم الإخوان[1].

ثم انتقل عروة بن الورد إلى ذكر الحاجة الملحة التى اضطرته إلى أن يحترف مهنة الصعلكة فقال:

١- ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ∴ من المال يطرح نفسه كل مطرح
٢- ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة ∴ ومبلغ نفس عذرها مثل منجح
٣- لعلكم أن تصلحوا بعدما أرى ∴ نبات العضاه الثائب المتروح[2]

(١) يراجع شرح الأبيات فى ديوان عروة صـ٢٠، ٢١ .
(٢) ينظر الديوان صـ٢٦، ٢٧ .

والمتأمل فى كلام عروة ــ هنا ــ يدرك أنه أورده فى نظم دقيق وعميق وأنه دليل واضح على أنه أقدم على حرفة الصعلكة بعد محاورات نفسية ومناقشات فكرية طويلة ودليل ذلك أنه: استعمل أسلوب الشرط الذى يدل على بناء المعانى ووقوع النتائج على المقدمات وتسلسل الأفكار وأنه من أساليب الجدل والحجج العقلية التى تدعو المرء لطول النظر والتأمل فى الأشياء، ومن ذلك استعماله "مثل" وتكررها فى بيتين متتاليين واستعمال مثل للدلالة على التشبيه فى شعر عروة قليل للغاية ومن خلال قراءتى فى شعره وجدته لا يستعملها إلا فى المقامات الدالة على تمام المماثلة والمشابهة فهو يذكر أن من شابه حاله حالى لابد أن يفعل ما فعلته ولا يتراجع أبدا عنه.

وقد ذكر علماء اللغة أن "مثل" لها خصوصيات معينة وأنها تدل على المساواة بين الشيئين[١].

كما نلاحظ أن عروة استعمل التشبيه الضمنى فى البيت الثالث، والتشبيه الضمنى يستعمل لإخفاء معالم التشبيه وهو لون من ألوان التفنن والتصرف والإبداع فى الكلام، وأظن أن عروة استعمل التشبيه الضمنى لأنه أراد أن يرتفع بأسلوبه ويخفى معانيه؛ حتى لا يفهمها إلا الخاصة من الناس وهم الفريق الذى عناه عروة من الصعاليك دون من عداهم، فالتشبيه الضمنى يلوح من العبارة وكأنه لا يحتاج إلى تصريح به؛ لأنه واقع لا مناقشة فيه[٢].

ونعود إلى أبيات عروة الصعاليك لنتأمل مقاصده ومعاناته إنه يقول: "ومن يك مثلى" أى: من يشبه حاله حالى فى كثرة العيال والفقر يلقى نفسه فى كل مكان ظن فيه الرزق مهما كان بعيدا أو مبيدا.

---

(١) يراجع شروح التلخيص جـ٣ صـ٣٩٣، ٣٩٤ .
(٢) يراجع التصوير البيانى صـ٩١ وما بعدها.

وأسلوب عروة فيه إيضاح بعد إبهام حيث قال: "ومن يك مثلى" فأطلق أمرا عاما يدل على أن هناك مماثلة فى أمر ما، لكن لا يدرى بيانها، ثم عبر بعد ذلك بما يزيل هذا الخفاء فقال: "ذا عيال ومقترا من المال".

وتأمل قوله: "ذا عيال" والعيال : هم الضعاف المهملون الفقراء الذين لا قوة لهم فهم عالة عليه وهو ــ وحده ــ صاحبهم الذى يكفلهم ويعولهم.

والعيال فى بيت عروة قد يراد بها أهل بيته والمحاويج من أهله وأولاده الصغار، أو يكون استعارها للصعاليك؛ فقد كان يكنى بهم وكانوا ينادونه بـ:يا أبا الصعاليك.

ثم تأمل قوله: "يطرح" وكيف اختار هذا الجذر الذى يدل على: الرمى فالشىء المطروح يلقى لأنه لا حاجة لأحد فيه، كما أن جذر هذه الكلمة فيه دلالة على البعد الشديد(١)، فكأن عروة يلقى بنفسه فى أبعد الأماكن وأصعبها من أجل أولئك العيال وكأن نفسه صارت هينة عليه فى هذه الحالة؛ لأنه يرى أنه لا قيمة للعيش والحياة ولا كرامة للنفس إذا لم تستطع أن تحقق لقمة العيش لأولئك البائسين.

ثم ذكر فى البيت الثانى العلة التى جعلته يطرح نفسه كل مطرح فقال: "ليبلغ عذرا أو يصيب رغيبة".

أى: ليقيم لنفسه حجة فى أنه فعل كل ما بوسعه ثم لم يحقق ما كان يرجوه، "أو يصيب رغيبة" أى: ينال ما يرغبه ويحرص عليه من الغنى وكثرة المال الذى يحقق له ولعياله السعادة.

---

(١) يراجع اللسان مادة : طرح .

والمتأمل فى البيت الثانى يدرك أن عروة الصعاليك لم يكن واثقا من إصابة رغيبة؛ لأن نيل الآمال فى ذلك المجتمع لم يكن بالأمر السهل الميسور، فقد يطرح نفسه فى كل مطرح ومع ذلك لا يحقق شيئا، من أجل ذلك بدأ بيته بذكر العذر، ثم جعل الشطر الثانى من البيت بيانا لقيمة العذر فقال: "ومبلغ نفس عذرها مثل منجح" إنه يشبه الشخص الذى أقام حجته على أنه فعل كل ما بوسعه ثم لم يحصل شيئا يشبهه بالذى ظفر بالشىء وحقق مراده، وهذه الصورة التشبيهية تدلنا على العناء الشديد الذى كان يكابده أولئك الصعاليك فى سبيل الحصول على لقمة العيش.

وقلنا منذ قليل إن عروة الصعاليك استعمل مثل فى هذا السياق وهى من أدوات التشبيه القليلة الدوران فى شعره لأجل إيقاع المشابهة والمماثلة التامة بين ركنى التشبيه .

وفى البيت الثالث أتى عروة بهذا التشبيه الضمنى، والتشبيه الضمنى نادر للغاية فى شعر عروة بن الورد وقد استعمله هنا ليتمم الحبكة الأسلوبية فى هذه المقطوعة الشعرية، وليبين لكل مستمع أو قارئ لشعره أن أمر عياله وإسعادهم وتحقيق السعادة والخير الوفير لهم كان أول شىء يشغله ولقد تروى عروة غاية التروى ودقق فى اختيار ألفاظه ونظم عباراته حتى خرج علينا بهذه الصورة الطريفة فى قوله:

لعلكم أن تصلحوا بعدما أرى ∴ نبات العضاه الثائب المتروح

ومن الواضح أنه كان يخاطب إخوانه الصعاليك الذين فعل من أجلهم كل شىء، إنه يصور لهم حصول الأمل والخير والغنى بعد اليأس والجوع بهذه الصورة التى تكررت أمام عينيه وهى حال شجر العضاه وما يحدث له من تغيير . والعضاه : كل ما كان من شجر البر له شوك ، والمتروح: هو الذى استقبل البرد فصار ورقه يقطر من غير مطر، يعنى نبت ورقه إذا مسه البرد من غير مطر وقيل: هو ظهور الورق فى أصول

الأشجار وفروعها بعد أن تيبس، والثائب: الراجع العائد إلى حاله يعنى: يثوب ورقه بعد الذى سقط.

إن طبيعة الشجر معلومة لعروة بن الورد كما هى معلومة لغيره، إن أوراق الشجر تتساقط فى الخريف ثم تورق من جديد فى مطلع الربيع، وكم تأمل عروة فى هذا الشجر وأحواله المتغيرة، وكيف تدب فيه الحياة من جديد ؟ وكيف يكسوه الربيع بأوراقه وأزهاره وثماره؟! إنه يأمل أن يعود الصلاح والخير إلى أصحاب الكنيف (وهم جماعة من الصعاليك لهم قصص مشهورة مع عروة) كما تعود الأوراق إلى شجر العضاه "لعلكم تصلحون بعدما أرى بكم من الجهد والهزال وتنبت لحومكم كما صلحت هذه العضاة بعد اليبس"(١) .

وهذا الأمل عند عروة الصعاليك وأمثاله هو الذى دعاهم للبحث عن أسباب البقاء بعد أن ظلمهم مجتمعهم ولم يرحمهم على الرغم من طول توسلهم لأغنيائهم!!

إن عروة وأمثاله من الصعاليك لم يسلكوا طريق الصعلكة إلا لضرورة دعتهم لذلك، سواء أكانت ظروفا مناخية قاسية أبادت كل شىء كما نرى فى بلاد المجاعات ، أم كانت ظلما وقع عليهم من أغنياء بخلاء لم يراعوا حق الضعيف فى الحياة. يقول د/ يوسف خليف: "ينظر هؤلاء الصعاليك الأقوياء إلى المجتمع الذى يعيشون فيه، فإذا هو مجتمع ظالم، وإذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب، إنه مجتمع لا يؤمن إلا بالمال ولكنه ــ مع ذلك لا يحسن توزيع المال بين أفراده، فليس من

---

(١) ابن السكيت فى شرحه للديوان صـ٢٧ ويراجع شرح الأبيات فى ديوانه صـ٢٦، ٢٧ .

العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل فى حين لا يملك الآخر غير حبل يجرره لا بعير فيه ..." [١] .

إننى أرى الحياة التى عاشها الصعاليك فى جزيرة العرب فى الجاهلية هى أسوء حياة يمكن أن يعيشها أو يتخيلها بشر .

قال ابن قتيبة عند ذكره للأحيمر السعدى: "فخرج فى الفلوات وقفار الأرض. قال: فظننت أنى قد جزت نخل وبار، أو قد قربت منها؛ وذلك لأنى كنت أرى فى رجع الظباء النوى وصرت إلى مواضع لم يصل أحد إليها قط قبلى ، وكنت أغشى الظباء وغيرها من بهائم الوحش فلا تنفر منى، لأنها لم تر غيرى قط ... وهو القائل:

وإنى لأستحيى لنفسى أن أرى ∴ أمر بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل العبد اللئيم بعيره ∴ وبعران ربى فى البلاد كثير" [٢]

فهذه حياة ــ كما ترى ــ تجعل الصعلكة عند هؤلاء ضرورة وليست متعة أو حرفة اختيارية ترفيهية .

ويعقد عروة بن الورد مقارنة بين صنفين من الصعاليك يجتمعان فى الفقر والجوع، لكنهما يفترقان فى النبل والشهامة فيقول عن الصنف الأول:

١ـ لحى الله صعلوكا إذا جن ليله ∴ مضى فى المشاش آلفا كل مجزر
٢ـ ينام عشاء ثم يصبح طاويا ∴ يحت الحصى عن جنبه المتعفر
٣ـ قليل التماس الزاد إلا لنفسه ∴ إذ هو أمسى كالعريش المجور
٤ـ يعين نساء الحى ما يستعنه ∴ ويمسى طليحا كالبعير المحسر [٣]

---

(١) الشعراء الصعاليك صـ٤٦ .
(٢) الشعر والشعراء جـ٢ صـ٧٨٧، ٧٨٨ .
(٣) الديوان صـ٤٩، ٥٠ وينظر الأصمعيات صـ٤٥، ٤٦ طبع دار المعارف.

لحى الله صعلوكا يعنى: قبحه ولعنه وأهلهكه، جن ليله: ستره الليل بظلامه، مضى فى المشاش، المشاش هو: رؤوس العظام اللينة التى يمكن مضغها، وقوله: مضى فى المشاش، أى: حريص على مص أطراف العظام ليستخرج ما فيها من مخاخة، المجزر: مكان الذبح، طاويا أى: جائعا، يحت الحصى: يفركه ويلقيه عن جنبه، المتعفر: المتمرغ بالتراب، العريش: البيت المصنوع من الخشب أو جريد النخل، والمجور: الساقط المتهدم، طليحا: أى أصابه الإعياء والكلل، المحسر: المتعب المهزول الذى أصابه الإعياء.

والذى يلفت النظر ابتداء هو اختيار عروة لهذه المفردات ، واختياره زمن الليل خاصة، ثم وصف ذلك النوع من الصعاليك بالنوم فيه، ثم اختياره هذه الصورة بالذات أعنى: أنه صور ذلك الصنف بالعريش المجور والبعير المحسر، وهى صورة تعكس قبح حالهم ورداءة وصفهم فقد أراد عروة أن يخرجهم من دائرة الشجاعة والبطولة والمروءة التى كان يمدح بها الصعلوك ويدخلهم فى دائرة أخرى معاكسة تماما.

فالصعاليك يمدحون بأنهم مشاغبون مغيرون وأنهم أبناء ليل، فهم يسهرون الليل كله فى النهب والإغارة والسلب وليسوا خليين منعمين مترفين، فالصعلوك الحق هو الذى ينطلق إلى أعماق الصحراء النائية، ويشرد فيها ويلقى ما يلقى من أسباب الهلاك حتى يحصل على الرزق[١].

فعروة فى هذه الأبيات يدعو على هذا الصعلوك الخامل، وكأنه يبرأ منه؛ لأنه رضى بالفقر والذل والهوان وترك سبل الجد التى تحقق له

---

(١) يراجع الشعراء الصعاليك صـ٢٥ وصـ٣١٢ .

الحياة الكريمة؛ لأنه لا يمضى فى المشاش ويألف المجـــازر إلا الضـــباع وآكلات الجيف٠

فعروة بن الورد فى هذه الأبيات يعرض بهذا الصنف من الصعاليك بأنهم خارجون ــ فى رأيه ــ عن البشر الأسوياء٠

واستمر عروة فى وصف ذلك الصعلوك فقال:

ينـام عشـاء ثـم يصـبح طاويـا ∴ يحـت الحصـى عـن جنبـه المتعفـر

إنه كسول، لا همة له؛ إنه ينام فى وقت سهر الأبطال الأقوياء، ويصبح جائعا خالى البطن من القوت، وهو يتمرغ فى التراب كالدواب.

ثم يصوره عروة بصورة تشينه حقا، فيقول: "إذا هو أمسى كالعريش المجور، إنه يشبه ذلك الصعلوك فى وقت المساء بالعريش المتهدم إنه صار كومة من الرمال والقش، وهذه صورة تبرز الصعلوك فى مشهد قبيح معبر عن الكسل وقلة الهمة؛ إنه يأكل وينام ولا هم له إلا نفسه فقط إنه لم يتذكر غيره ولم يغتنم قوته لإسعاد البائسين.

ثم صوره فى صورة أخرى أشد ذما فقال: "ويمسى طليحا كالبعير المحسر" إنه يشبهه فى هزاله وقلة حيلته وانحطاط شأنه وهوانه بالبعير الهزيل الذى أصابه الجهد والإعياء، وهى صورة تنفر منها العرب وتكرهها فى دوابها، ولعل البعير يصيبه ذلك من كثرة العمل وطول الأسفار، أو من إهمال صاحبه فيه، أما هذا الصعلوك فهو أسوأ من ذلك البعير؛ لأنه وصل إلى هذا الحال السيىء بصفاته الذاتية المتأصلة فيه وهى التى دعته للكسل ومنعته الجد، فتحول من صفات الرجولة والسيادة إلى صفات النساء والخدم فصار "يعين نساء الحى ما يستعنه" إنه أتعب نفسه فى خدمة النساء الحرائر والإماء كأنه صار عبدا لهن!!

وتأمل "ما" فى قوله "ما يستعنه" وكيف أخفى هذا الحرف ما أخفاه؟! فكأنه يعين النساء فى كل شىء حتى ما يخص المرأة من أعمال أو لعله يعين فيما يستقبح ذكره، إنه عبد مأمور لنساء الحى!!

وواضح أن عروة يخرجه من دائرة الرجال الأحرار إلى دائرة العبيد الأنذال[١].

وكان عروة بن الورد يكره القعود فى البيت وكان يعد ذلك عيبا قبيحا فى الرجال وقد أكد هذا المعنى كثيرا فى شعره فنراه يقول:

---

(١) يراجع شرح الديوان صـ٤٩ : ٥٠ .

رهينة قعر البيت كل عشية ∴ يطيف بى الولدان أهرج كالرأل[1]

وقد ذكر لوم إحدى نسائه له حين رأته منكسرا فى بعض أحواله فدعته بالخروج من البيت وذلك فى قوله:

مالى رأيتك فى الندى منكسا ∴ وصبا كأنك فى الندى نطيح
خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ∴ إن القعود مع العيال قبيح[2]

وإنما ذكرت ذلك لأؤكد أن عروة كان صريحا مع نفسه ومع الناس وأنه كان صادقا فى مبدئه وفى دعوته فحين كان يكره ويعيب شيئا فى أحد كان يكره ذلك الشىء ويعيبه فى نفسه إن وجده فيها إنه كان مقتنعا أن الجلوس فى البيوت من عادات النساء ولا يناسب البطولة والزعامة وعلو الهمة وكسب المعاش٠

ثم انتقل عروة إلى ذكر أوصاف الصنف الثانى من الصعاليك الذين أحبهم واقتنع بصحبتهم وضحى من أجلهم فقال:

١- ولكن صعلوكا صفيحة وجهه ∴ كضوء شهاب القابس المتنور
٢- مطلا على أعدائه يزجرونه ∴ بساحتهم زجر المنيح المشهر
٣- إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه ∴ تشوف أهل الغائب المتنظر[3]

وهذه الأوصاف ــ كما ترى ــ تدور كلها حول معنى عام وهو: الشهرة وذيوع الصيت والخروج من قيد القبيلة وحدودها إلى مناطق نائية وبلاد فسيحة يحقق فيها الصعلوك ما يرجوه٠

والصفات التى ذكرها عروة فى هذه الأبيات تقابل على الجملة الصفات التى ذكرها سابقا للصعاليك الكسالى المهزولين ٠

---

(١) يراجع الديوان صـ٧٥ وسيأتى بيان بلاغة هذه الصورة ٠
(٢) يراجع الديوان صـ٢٨ وسيأتى بيان ذلك فى حينه٠
(٣) ديوان عروة صـ٥١ ٠

فقوله: "ولكن صعلوكا" أى: ولكن صعلوكا هكذا وجهه لا لحاه الله على حد تعبير ابن السكيت، أو يكون "صعلوكا" منصوبا على المدح والاختصاص كأنه قال: ولكن أخص وأمدح صعلوكا، وفى رواية الأصمعى للبيت "ولله صعلوك" فهو يرفع من شأنه ويمجده ويتعجب من علو همته، ويدعو له بالحفظ، والمعنى ــ كما ترى ــ متقارب فى الروايتين؛ لأنه دليل على حبه وإعجابه واقتناعه بهذا النوع من الصعاليك.

ثم أخذ يذكر صفات هذا النوع فبدأ بهذه الصورة التشبيهية المشعة البراقة فقال: "صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور"، وصفيحة الوجه: عرضه وجانبه والمقصود بها هنا: الخد أو بشرة جلد الوجه، والشهاب هو: شعلة النار الساطعة، والقابس هو: من يقبس النار ويأخذها، والمتنور هو: المضئ وهو من صفات الشهاب[١] .

إنه يرى فى وجه هذا الصعلوك النضارة والجمال والبهاء وإشراق النور وسعة ظهوره حتى صار يشبه ذلك الضوء الذى يرى عند اقتباس شعلة النار الساطعة، ووجه الشبه هو الشهرة والظهور وعموم النفع ووجود المسرة، إنه لا يريد أن يشبهه بقبس النار فى الإحراق والإهلاك، ولكن أراد أن يأخذ من القبس صفة النور والظهور ولذلك احترس فقال "المتنور" ليعلن عن مراده من ذلك التشبيه إنه يعنى التلألؤ والرفعة وذيوع الصيت بين القبائل فهو جدير بأن يقتدى به لإخراج الناس من ظلمات الظلم والبخل كما يهتدى السارى بشعلة النار فى الظلمات.

والمتأمل فى هذه الصورة يرى أن الصعلكة عند عروة بن الورد كانت رمزا للفخر والشهامة؛ لأنها ثورة على الظلم الواقع فى تلك الحياة،

---

(١) يراجع شرح الديوان صـ٥١ والأصمعيات صـ٤٦ وتراجع المواد فى لسان العرب والقاموس المحيط.

التى حملت الفقير ما لا يطيق فجاع كبده وهزل جسده وأخذ يترقب الهلاك الذى صار أقرب إليه من كل شىء[١].

وبهذا ترى دقة عروة بن الورد فى اختيار الشهاب المضئ فى هذا المقام فهى صورة موحية دقيقة وعميقة فى دلالتها على الحالة النفسية التى كان يعيشها الصعاليك، فالصعلكة هى بريق الأمل الذى يشع ويتوهج ليغير وجه الحياة الذى يراه الصعاليك كئيبا عابسا!!

ثم ذكر صورة أخرى فيها طرافة، وطرافتها جاءت بسبب عدم حضور صورة المشبه به فى الذهن عند حضور المشبه، فهى صورة للتشبيه البعيد الغريب، ومثل هذه الصور كثير الوقوع فى شعر عروة بن الورد وفى أشعار الجاهليين عموما.

يستوى فى ذلك الصعاليك وغيرهم، وفى ذلك رد على الدكتور يوسف خليف ــ رحمه الله ــ فى تعليله لكثرة مجئ التشبيه فى شعر الصعاليك[٢].

يقول عروة الصعاليك:

مطلا على أعدائه يزجرونه ∴ بساحتهم زجر المنيح المشهر

والتشبيه ــ كما ترى هنا ــ طريف؛ لأنه لا يمكن أن يقع فى الذهن صوت الصياح الحاصل عند رمى المنيح ــ وهو قدح لا نصيب له

---

(١) يراجع الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى من صـ٢٨ إلى صـ٦١.

(٢) أشرنا إلى ذلك فى البحث من قبل وسوف يتكرر ذلك فى مواضع كثيرة فى البحث لأنه نتيجة من نتائج البحث تحتاج إلى التنبيه عليها والتدليل على وقوعها فلا حرج فى تكرار مثل ذلك للعلة التى ذكرناها.

من قداح الميسر وإنما يستعار تيمنا بفوزه[١] ــ أقول: لا يمكن حضــور هذه الصورة عند ذكر صياح الناس وزجرهم للصعلوك٠

إنما تكون الصورة قريبة وواقعة فى الــذهن إذا قــال: يزجرونــه بساحتهم كزجرهم الأسد أو الذئب أو الضبع أو الجيش المغير أو ما يشبه ذلك، أما الصورة التى اختارها عروة هنا فهى نادرة حقا لأنها بعيدة كما ترى، وهذا يدل على دقته وتأنيه وتعمقه فى اختيار صوره٠

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت لديوان عروة صـ٥١ ٠

وتأمل قوله: "مطلا على أعدائه" فهو مشرف علـــى أعدائـــه أى: مرتفع عليهم، فاللفظ ــ كما ترى ــ يوحى بالقوة والرفعة وفيـــه دلالـــة على الشجاعة التى كان يتمتع بها الصعاليك؛ لأنهم يعتقـــدون أن المـــال الذى يحصلونه من الأغنياء البخلاء إنما هو حقهم وقد حرموا منه بظلم أولئك الأغنياء ولذلك حسن أن يختار فى هذا السياق كلمة "أعداء" فهـــذه العداوة هى التى دعت الصعلوك إلى أن يدخل ساحتهم أى: الفضاء الكائن بين دور الحى، والصورة حسية فيها حركة وفيها صوت وفيهـــا حيـــاة كادت تحس عند طول التأمل؛ فعروة من علو بلاغته ودقة صورته حرك خواطرنا وأيقظ عقولنا ودعانا لنعيش ــ الآن ــ وســـط هـــذه المعركـــة الحاصلة بين الصعاليك وبين أرباب المخائض فالأصوات ترتفع والحركة فيها سرعة وانفلات والأطفال تصيح والنساء تصـــرخ وللإبـــل رغـــاء وللخيول صهيل نظل على ذلك الحال حتى يستقر فى عقولنا وجه ا لشبه الذى أراده عروة من هذا التشبيه وهو: صورة حسية حاصلة من اختلاط أصوات مرتفعة واردة فى حركة وانفعال واضطراب.

واستوقفنى كثيرا كلمة "المنيح المشهر" فى هـــذا الســـياق وســـر اختياره فى هذا المقام!!

وقلت لعل فى ذلك أنه أراد أن يذكر هيبة الناس للصـــعاليك فهـــم يجتمعون كلهم، بل وينادون غيرهم ليعاونوهم ويساندوهم فى مواجهـــة الصعاليك الأقوياء، أو يكون اختياره للمنيح لأنه قدح لا يحكم عليه بالفوز أو الخسارة ولا نصيب له فى سهام الميسر ولا يرغب فيه أحد، فاختاره عروة لهذه الدلالة أعنى: عدم رغبتهم فى ظهوره وكأن الصعلوك صـــار نسيا منسيا فى هذا المجتمع فلا يهتم به أحد.

كما أن هذا الاختيار يوحى بأن حال المعركـــة بالنســـبة للفـــوز أو الخسارة غير متحقق فى مثل هذه الظروف وغير مراد أصلا؛ فما زجرهم للصعلوك بساحتهم إلا إشارة ودليل على يقظتهم فقط وهذا مثل الصـــوت

الذى يصدره الحراس والخفراء للدلالة على وجودهم فقط، ولا يعنى ذلك اشتباك أو قتال؛ لأنهم لا يرغبون فى مقاتلة الصعلوك وهذا يضفى على المقام شيئا من المهابة للصعلوك٠

أو لعله أراد من اختيار المنيح المشهر أن يبين أن إغارة الصعاليك فى هذه المرة كانت فى وقت الشتاء حين يشتد البرد وتوقد النيران وتذبح الإبل وتضطرب قداح الميسر فصادف صياحهم بالميسر صياحهم بالصعلوك فحسن ذكره لذلك ويبقى ما ذكره عروة خبيئا فى عبارته وهذا من ثراء الدلالة، لله أبوه!!

ثم ينتقل عروة الصعاليك إلى ذكر الرهبة الدائمة التى كان يحدثها الصعاليك فى أعدائهم أو بمعنى محدد: ذلك النوع الخاص الذى مدحه عروة فى هذه الأبيات فقال:

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه ∴ تشوف أهل الغائب المتنظر

فالأغنياء أصحاب الإبل كانوا يحاولون البعد عن الصعاليك حذرا من غاراتهم، وهم فى هذا الحال لا يأمنون اقتراب الصعلوك وإغارته، وعبر بـ"إذا" للدلالة على تحقق وقوع الحدث، وكلام عروة واضح الدلالة فى أن الصعاليك كانوا يتتبعون آثار أولئك الأغنياء مهما بعد مكانهم٠

وفى هذا البيت صورة تشبيهية طريفة وردت بحذف أداة التشبيه، وهى قول عروة "تشوف أهل الغائب المتنظر"٠

ومعلوم عند البلاغيين أن حذف الأداة والوجه يجعل التشبيه بليغا؛ حيث يقترب الاتحاد بين الطرفين وتزيد المبالغة فى التشبيه ٠

إن عروة يشبه ترقب أهل الحى للصعاليك وتوقعهم قدومهم عليهم فى أى وقت بانتظار أهل الغائب غائبهم متى يقدم فأعينهم إليه يتشوفونه[١]٠

---

(١) يراجع شرح الديوان صـ٥١، ٥٢ ويراجع الأصمعيات صـ٤٦، والتشوف أن يطلع الإنسان إلى مكان مرتفع فيتطاول وينظر، والمتنظر هو الذى يتوقع قدومه فالعين تترقبه. يراجع نظر ورقب فى اللسان والقاموس٠

والصورة ــ كما ترى ــ فيها طرافة ، وطرافتها حاصلة من الجمع بين المتباعدين، فصورة المشبه به لا تخطر بالبال عند حضور المشبه، والمتأمل يدرك أن هناك اختلافا ظاهرا بين من يترقب حضور الحبيب الغائب، وبين من يترقب الصعلوك المغير ولكن عروة لم يرد أن يأخذ كل أجزاء الصورة فى المشبه به، إنه أراد أن يأخذ جزءا واحدا منها وهو اليقظة والتنبه لحضور مؤكد، هذا الجزء الخاص الذى أراده عروة من أجزاء الصورة هو الذى جعل التشبيه طريفا؛ لأنه دعانا لطول التأمل بل إن مثل هذه الصور هى التى تجعل التشبيه آنس وأعجب، وقد تنبه إلى ذلك الإمام عبدالقاهر ــ رحمه الله ــ فقال: "ولم يكن إعجاب هذا التشبيه لك وإيناسه إياك لأن الشيئين مختلفان فى الجنس أشد الاختلاف فقط؛ بل لأن حصل بإزاء الاختلاف اتفاق كأحسن ما يكون وأتمه، فبمجموع الأمرين ــ شدة ائتلاف فى شدة اختلاف ــ حلا وحسن وراق وفتن"(١).

إن عروة الصعاليك آثر "الغائب المتنظر" بالذات فى هذا المقام؛ لبيان حتمية الحضور والاقتراب مع المفاجأة، وهذا الوصف الذى ألحقه عروة بالصعلوك فيه كناية عن الحذر وتوقع المفاجأة والحضور اللازم، وهذا ما جعل للصعاليك الشهرة المدوية فى جزيرة العرب فى ذلك الزمان القديم، أعنى شهرتهم بالمغامرة والشجاعة.

ولا ينس عروة الصعاليك أن يحدثنا عن أوصافه وأن يعلن لنا عن شجاعته وبطولاته النادرة وكيف كان يحمى حماه ويجيب من ناداه فيقول:

١ـ إذا قيل يابن الورد أقدم إلى الوغى ∴ أجبت فلاقانى كمى مقارع
٢ـ بكفى من المأثور كالملح لونه ∴ حديث بإخلاص الذكورة قاطع
٣ـ فأتركه بالقاع رهنا ببلدة ∴ تعاوره فيها الضباع الخوامع
٤ـ فلا أنا مما جرت الحرب مشتك ∴ ولا أنا مما أحدث الدهر جازع

---

(١) أسرار البلاغة جـ١ صـ٢٨٠ .

٥- ولا بصرى عند الهياج بطامح ∴ كأنى بعير فارق الشول نازع[١]

وهذه الأبيات ــ فيما أرى ــ تبرز شخصية عروة بن الورد وتعبر عنه أصدق تعبير، وهى لوحة تصويرية استعملها فنان قدير ليرسم بها صورة مجسمة لشخصيته القتالية.

وأظن أن هذه الصفات الواردة فى هذه الأبيات وفى مثيلاتها هى التى دعت خلفاء بنى أمية وغيرهم للإعجاب بعروة بن الورد، وهى التى دعت الصعاليك للالتفاف حوله ودعت نساءه أيضا للإعجاب به.

وصفات عروة هنا قريبة جدا من صفات عنترة بن شداد التى وردت فى معلقته، وكلاهما من عبس، فلا عجب أن تتقارب صفاتهما.

وأول ما نطالعه فى هذه الأبيات قوله: "إذا قيل يابن الورد" وبناء الفعل للمجهول فى قوله "قيل" للدلالة على أهمية القول لا القائل فليس المراد من قال، ولكن الأهم ماذا قيل، فالمعنى الذى قيل أعنى "يا بن الورد أقدم إلى الوغى" هو المراد وهو الأهم وليس قائله.

وعبر بـ"إذا" للدلالة على تحقق وقوع ذلك وكثرة حدوثه والنداء على عروة باسم أبيه فيه دلالة على شهرة أبيه فى قبيلته وافتخار عروة بذلك، ومعلوم أن عروة كان يفتخر بأبيه وقبيلته ولم يفتخر بأخواله[٢]، ويبدو أن والد عروة كان ذا عقل وحكمة وبعد نظر بدليل قصته المشهورة مع عروة وأخيه حيث أشار إلى تفرد عروة فى الصفات والقدرات برغم صغره وضعفه[٣].

---

(١) ديوان عروة صـ٦٦ .
(٢) سنفرد لذلك حديثا فى الفصول التالية .
(٣) يراجع الأغانى جـ٣ صـ٦٩ ويراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٢٣

والجملة الأمرية "أقدم إلى الوغى" معناها الإثارة والتهييج والحث على الإقدام والاستمرار فيه لأن عروة كان مقداما جريئا لا يهاب المعارك.

وهذا النداء الصادر من قومه إليه يدل على شجاعته وأهمية إقدامه عند خوض المعارك ويدل أيضا على شدة وقوة خصومه، وقد صرح عروة بذلك المعنى فى قوله: "فلاقانى كمى مقارع" والكمى المقارع هو: البطل الشجاع الذى يلبس الحديد ويضرب خصومه بسيف جيد متين، والوغى: الصوت والجلبة التى تحدث عند شدة المعارك، والمأثور: السيف الذى فى متنه أثر لكثرة الضرب به وكان يتوارث فى القبيلة، وقوله "حديث بإخلاص الذكورة" فيه زيادة فى مدح سيفه؛ فالحديث: هو المصقول قوى المتن، إخلاص: لمعان وبريق وصفاء ، الذكورة: حدة حد السيف وشدته؛ لأنه مصنوع من أجود الحديد، وكلها صفات مدح تؤكد أهمية سيفه وجودة صنعه، وعروة أراد بإطالة وصفه لسيفه أن يؤكد قوة نفسه وبسالته وأنه مشهور بالشجاعة فى قبيلته كما أنه يقدر الأبطال المقاتلين فى الجانب الآخر فما يلبث أن يخرج ملبيا النداء لخوض المعارك حتى يلاقيه فارس شجاع مغوار مدجج بالحديد يحسن طعن خصومه.

وهذه طبيعة المعارك التى ينادى لها الأبطال ويعرف فيها قدر الرجال، وهذا المعنى قريب جدا مما ذكره عنترة بن شداد فى قوله:

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها ∴ قيل الفوارس ويك عنتر أقدم[1]

فكلاهما نودى واستغيث به، وكلاهما سعد بهذا المجد الذى يبرز شجاعته وسط القبائل.

---

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى للقصائد السبع الطوال صـ٣٥٩ .

وقول عروة:"فلاقانى كمى مقارع" هو الذى عناه عنترة فى قوله:

ومـــدجج كـــره الكمـــاة نزالـــه ∴ لا ممعـــن هربـــا ولا مستســـلم[١]

فالشاعران ــ كما ترى ــ يلتقيان فى الشـــجاعة وفهـــم معـــانى البطولة وتقدير الأبطال، وليس هذا عجيبا ولا تظنه من توارد الخواطر، إنما هو ميراث المجد الذى كان يتناقل من الآباء إلى الأبنـــاء بـــل مـــن الأجداد إلى الأحفاد، والشاعران الكبيران من قبيلة "عبس" يجتمعان فـــى الجد : "عوذ بن غالب" وقد عاشا فى زمان واحد كما سيتضح ذلك فيمـــا بعد[٢].

وفى هذا السياق المشحون بالشـــجاعة والبطولـــة يـــورد عـــروة الصعاليك هذه الصورة التشبيهية الدقيقة فيقول: "بكفـــى مـــن المـــأثور كالملح لونه" إنه يشبه بياض وصفاء شفرة ســـيفه ولمعانـــه، ببيـــاض وصفاء الملح ووجه الشبه: البياض والبريق وهذه الصورة تبرز جـــودة سيفه وأنه شديد القطع وذو قيمة فى القبيلة حتى توارثته الأجيال، وإنه وصل إلى يد عروة بن الورد لأنه أحق أبطال عبس بحمله فى زمانه.

ولعلك تتساءل مثلى: لماذا الملح بالذات هو الذى تم اختياره فـــى هذا المقام؟!!

وليس من الصواب أن نذكر فى كل صورة من صور التشبيه التى ذكرها عروة: أن الصورة طريفة نادرة أقول: ليس من الصواب تكـــرار ذكر ذلك وإن كان الأمر كذلك حقا، بل من الأولى أن نعلل للصـــورة وأن نلتمس ــ بكل ما فى وسعنا ــ سببا لاختياره صورة على صـــورة ؛ لأن الإسراف كما يكون فى المطعم والملبس والمشرب يكون كذلك فى الكلام

---

(١) يراجع شرح ابن الأنبارى للقصائد السبع صـ٣٤٥ .

(٢) راجع نسب عنترة فى شرح ابن الأنبارى صـ٢٩٣ وراجع نسب عروة فى مقدمة ديوانه صـ٧ وما بعدها.

من أجل ذلك سأنبه على طرافة الصورة بإيجاز خاصة وأننا أشرنا إلى ذلك بوضوح فيما سبق وسأحاول أن أعلل لاختيار عروة لصوره بما فى الطوق.

وأعود إلى سبب ذكره الملح بالذات فأقول: من المعلوم أن الملح يمكث طويلا ولا يفسد ولا يتغير لونه فأراد أن يلحق سيفه المأثور عن الأجداد بالملح فى هذه الصفة، كما أن الملح يلزم فى الطعام ولا يستغنى عنه فأراد أن يلحق سيفه به فى هذه الصفة؛ لأن السيف لازم لخوض المعارك ولذلك اختار كلمة "كفى" فى هذا السياق ويضاف إلى ذلك الصفات الظاهرة الأخرى التى نراها فى "الملح" والتى أشار إليها عروة فى قوله "لونه".

إن عروة بشجاعته وخبرته فى خوض المعارك وبوجود هذا السيف المأثور الذى أحكم القبضة عليه يترك الكمى صريعا فى أرض المعركة "تعاوره الضباع الخوامع" والفعل المضارع "تعاوره" أصله تتعاوره وحذفت التاء الأولى تخفيفا لمناسبة سرعة الحدث، ومعنى تعاوره الضباع: تتناوب على نهش لحمه فتأتى الواحدة بعد الأخرى، ووصف الضباع "بالخوامع" لبيان هيئة مشية هذه الضباع، فهى حين المشى وفى أول جريها يراها المتأمل كأن بها عرجا.

وكثر فى الشعر القديم وصف الضباع بالعرجاء ، قال أحد الجاهليين:

تركنا العرج عاكفة عليه .·. وللغربان من شبع نغيق[1]

وقال غيره:

والضبع العرجاء والليث الهصر[2]

---

(١) الأصمعيات صـ٢٠٢ ط الخامسة دار المعارف.

(٢) الحيوان جـ٦ صـ٤٤٨ ط الثالثة ط دار إحياء التراث العربى.

وخص عروة بن الورد الضباع بالذكر؛ لأنها تأكل الموتى إذا جيفت أبدانهم، وقد ذكر الجاحظ أن الضباع تنهش القبور وذلك من فرط طلبها للحوم الناس إذا لم تجدها ظاهرة، وذكر الجاحظ أن ابن الزبير تمثل بهذا البيت ــ لما أتاه مقتل أخيه مصعب بن الزبير:

خذيني فجريني جعار وأبشري ∴ بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

وجعار اسم للضبع لكثرة جعرها، إذا عروة خص الضباع لإعجابها الشديد بالقتلى ولحوم البشر(١) .

وما ذكره عروة الصعاليك ــ هنا ــ قريب مما ذكره عنترة بن شداد فى قوله:

إن يفعلا فلقد تركت أباهما ∴ جزر السباع وكل نسر قشعم(٢)

فالسباع التى عناها عنترة هى الضباع التى ذكرها عروة بن الورد وبهذا يتضح لنا التقارب الشديد بين شاعرى عبس: عنترة بن شداد وعروة بن الورد، تقارب فى المعانى والأغراض والأساليب، ويدل تقاربهما على علو الهمة وسمو الغاية ونبل الهدف.

ولعل هذا التقارب الواضح بين الشاعرين هو الذى جعل لهما ذكرا طيبا بين الناس حين يذكرون شعراء الجاهلية.

ثم كرر عروة الصعاليك الافتخار ببطولته؛ ليؤكد شجاعته فقال:

فلا أنا مما جرت الحرب مشتك ∴ ولا أنا مما أحدث الدهر جازع

والطريقة الأسلوبية التى بنى عليها عروة كلامه تفيد القصر؛ حيث قدم المسند إليه المنفى على الخبر المشتق وهذا يفيد القصر عند البلاغيين(٣) .

---

(١) يراجع المرجع السابق صـ٤٦، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ويراجع الأصمعيات صـ١٤٨، ٢٠٢، ٢٢٥ .

(٢) ينظر شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى صـ٣٦٥ .

(٣) يراجع فى إفادة المسند إليه للقصر إذا قدم على الخبر المشتق : الأطول جـ١ صـ١٣٠ والمطول صـ١٠٨ وينظر حاشية السيد الشريف الجرجانى على المطول نفس الصفحة . ويراجع شروح التلخيص جـ١ صـ٣٩٥ ويراجع الكشاف جـ٢ صـ٢٣١ .

والقصر هنا أفاد شدة الحرب واستعارها حتى صار كل الناس عدا عروة يشتكون مما جرته عليهم من ويلات وتقدير الكلام: أنا لا أشتكى مما جرت الحرب وغيرى يشتكى من ذلك . وكذلك يقدر الكلام فى قوله: "ولا أنا مما أحدث الدهر جازع" فالمعنى: أنا لا أجزع وغيرى يجزع...

وطريقة عروة هنا مع دلالتها على شدة المعارك ومصائب الأيام وأنه قوى ثابت أمام كل ذلك فهى فى ذات الوقت تدل على خبرته بأسرار الحروب وطريقة مواجهتها ومعرفته التامة بأحوال الدنيا وكيف تتقلب بأهلها!

و"ما" فى قوله: "مما جرت" وقوله: "مما أحدث" تحتمل المصدرية والموصولية والتقديران يدلان على هول الأمر وفظاعته وكأنه صار لا يوصف ٠

وعروة يصور الحرب فى صورة من يقدر على التصرف فى الأشياء وكذلك الدهر، وأرى أن حمل الكلام على الاستعارة المكنية أقوى وأظهر فى الدلالة على تهويل الأمر وفظاعة الحدث لأن فخامة الاستعارة ونبلها فى أنها تنطق الجماد وتبرز المعانى فى صور حسية وهذا أعلى فى المبالغة من حمل الكلام على المجاز العقلى ٠

ثم استمر عروة بن الورد فى الكشف عن شجاعته وشهامته فقال:

ولا بصرى عند الهياج بطامح ∴ كأنى بعير فارق الشول نازع

وقد قدم فى الشطر الأول المسند إليه المنفى على خبره المشتق للدلالة على القصر ــ كما ذكرنا سابقا ــ فهو ينفى عن نفسه هذه الصفة ويثبتها لغيره وفى هذا القصر تأكيد لثباته فى المعركة وأنه لا يجزع من هولها؛ لأنه عنى: أن بصره ــ وحده ــ غير طامح، أى: غير مرتفع ينظر من بعيد ليرى الطريق الذى يفر منه، أما غيره ففيه هذه الصفة عند الهياج أى: عند اشتداد القتال واحتدام المعارك٠

ثم أتى عروة بهذه الصورة الفريدة فقال: "كأنى بعير فارق الشول نازع" إنه إن زاغ بصره ليفر من المعركة يكون حاله كحال البعير الذى فارق الشول، والشول من النوق هى التى خف لبنها وارتفع ضرعها وأتى عليها سبعة أشهر من يوم نتاجها أو ثمانية فلم يبق فى ضرعها إلا شول من اللبن أى بقية فلا تزال شولا حتى يرسل فيها الفحل، والناقة الشائل هى اللاقح التى تشول بذنبها للفحل أى ترفعه فذلك آية لقاحها ومعنى نازع أى: يحن ويشتاق إلى الرجوع إليها(١).

وهذه الصورة تحتاج إلى طول تأمل لأنها ــ كما ترى ــ تحمل دلالات خفية قد لا تبدو واضحة من ظاهر التركيب.

ومن دلالات هذه الصورة بيان جانب من شجاعته لأنه حين اشتداد المعارك يوغل فى عمقها بغية النصر وهو لا يكون تابعا لأحد ليحذو حذوه ويتبع أثره بل هو يتقدم وحيدا حتى لو لم يجد من يحميه وهو فى هذه الحالة لا يطمع بصره إلى ما يقع فى أرض المعارك حين تكشف عن سوءات الرجال أو النساء، ويكثر فيها سلب الفوارس.

فمعنى كلامه: لا تطمع نفسى إلى غنيمة المعارك فأنا لا أنظر إلى ذلك ولا أفكر فيه، وهذا المعنى قريب للغاية من قول عنترة:

يخبرك من شهد الوقيعة أننى ∴ أغشى الوغى وأعف عند المغنم(٢)

فعنترة ــ كما هو واضح من كلامه ــ يأتى المعارك غير ناظر إلى غنيمة؛ لأنه لا يريد ذلك بل يريد النصر وعزة قبيلته ، وهكذا عروة بن الورد.

---

(١) يراجع شرح الأبيات فى الديوان صـ٦٦ ويراجع لسان العرب مادة: شول.

(٢) ينظر شرح ابن الأنبارى للمعلقات صـ٣٤٤، ٣٤٥ .

وعلى هذا تكون الصورة التى ذكرها فى قوله: "كأنى بعير فارق الشول نازع" للتقبيح وليست للتحسين؛ لأن معناها ليس حب الرجوع إلى النساء الحسان وفاء وتقديرا لهن كما يحب البعير الرجوع إلى الناقة الشائل بل المعنى ــ كما أرى ــ ليس من صفاتى حب الغنائم والأمور التى يسعى إليها كثير غيرى كما تسعى البعيران التى تحركها شهواتها وغرائزها إلى تتبع قطعان النوق الشائلة.

إن عروة يترفع عن كل هذا لأنه يسعى إلى صفات المجد السامية التى يقود إليها العقل السليم وليس الشهوات، لذلك يحرص على الثبات فى أرض المعركة مهما حمى وطيسها؛ كى يحقق العزة والفخر لقبيلة عبس.

وهو يثبت بقوله السابق أنه رجل خبير بخوض المعارك مدرك لأسرارها؛ لأن المقاتل إذا انصرف هواه عن هوى المعارك انهزم لا محالة، فهو لا ينشغل بشىء عن القتال بل ينشغل بالقتال عن كل شىء.

ثم انتقل عروة الصعاليك إلى ذكر بعض الأسباب التى دعته إلى امتهان حرفة الصعلكة فقال:

١ـ أليس ورائى أن أدب على العصا ∴ فيشمت أعدائى ويسأمنى أهلى
٢ـ رهينة قعر البيت كل عشية ∴ يطيف بى الولدان أهرج كالرأل
٣ـ أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم ∴ فكل منايا النفس خير من الهزل[1]

وقبل دراسة الصورة التشبيهية فى هذه الأبيات أشير إلى أمر مهم وهو: فهم عروة بن الورد للدلالة المعجمية لكلمة "وراء" حيث فهم أن كلمة "وراء" تدل على البعد الزمانى، وقد تناولت دلالة هذا اللفظ فى بحث سابق[2] .

---

(١) الديوان ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) يراجع الفروق الدقيقة بين مقامات الخلف والوراء فى النظم القرآنى البديع بحث منشور فى مجلة كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثالث والعشرين ، وما ذكره عروة هنا يؤكد ما ذهبت إليه هناك.

والاستفهام فى قوله: "أليس ورائى" للتقرير فهو يقرر أنه إن عاش زمنا طويلا وامتدت به الحياة سيصل ــ بلا محالة ــ إلى مرحلة الضعف التام، التى عبر عنها بقوله: "أدب على العصا" وهذا كناية عن الضعف والهزال لما حل بجسده من آثار الكبر والشيخوخة، فهو لا يستطيع أن يتحرك إلا متوكئا على عصاه، وحين يصل إلى هذه المرحلة لا يسلم من شماتة وسخرية أعدائه؛ لأن سوء حالته لا يشفع له أمام العداوة وداء القلوب الدفين، كما أن أقرب الناس إليه يملون حاله إشفاقا عليه، أو انشغالا عنه.

وتأمل قوله: "أدب" فهو يصور ضعف حركته وقلة قوته حتى صار لا يملك إلا هذه المشية الوئيدة الضعيفة، والعرب تقول: من شب إلى دب وهم يعنون بذلك: من الشباب إلى أن صار يدب على العصا، والدبدبة: كل صوت يسمع، فلعله كان يقصد ضعف حالة الإبصار، أو العمى التى قد تلازم من طال عمره فيقرع بعصاه على الأشياء لينبه الناس حتى يأخذوه إلى ما يريد وهذا الحال نلاحظه ــ دائما ــ فى كبار السن حيث يحدثون من الأصوات ــ فى أثناء تحركهم ــ ما يلفتون به أنظار الناس زد على ذلك أنه مجتمع بادية طبع الناس فيه على الحركة والتنقل.

ومجئ عروة الصعاليك بالطباق فى قوله "أعدائى" و"أهلى" يوضح ويؤكد سوء حاله خارج بيته وبداخله فقد صار أمره حديث القوم جميعا حتى القريب لم يعد يتحمله!

وتأمل قوله "أهلى" وما يوحيه هذا اللفظ من دلالات عميقة؛ فقد صار أقرب الناس إليه يسأمون منه!!، وعبارته دليل واضح على عمق تأمله وبعد نظره ومعرفته الجيدة بأحوال النفوس.

ثم استمر عروة فى الكشف عما تزاحم فى نفسه من خوف هذا المصير المؤلم فقال:

رهينة قعر البيت كل عشية ∴ يطيف بى الولدان أهرج كالرأل

واختياره لمفردات هذا البيت وما تحمله من دلالات خير شاهد على تأمله الطويل فى ذلك المستقبل المؤلم، فقد فصل لنا الصورة التى رسمها فى خياله لسوء حاله فى ذلك المستقبل البعيد!

فهو "رهينة قعر البيت" أى: مرتهن ملازم لقعر البيت ، ثابت ودائم فيه لا يبرحه، وقعر البيت: أقصاه، فقد تخيل أن أهله سيحبسونه فى ذلك المكان البعيد من البيت حتى لا يراه الناس؛ لأن حاله لم يعد يسمح بذلك فقد وصل إلى أرذل العمر وصار غير قادر على الإدراك والتصرف، وقد صار الصبية يتلهون به، ويدورون حوله كما يدورون بشجرة أو بناء أو غير ذلك حين يلعبون ٠

فهو كما قلت يتخيل حاله ثم صوره بهذه الصورة البديعة التى أخذها من واقعه، وأحسن تخيرها لتعبر تعبيرا دقيقا عن هيئته وحركته فقال: "يطيف بى الولدان أهرج كالرأل" والهرج معناه تدارك الخطوة والتحير فى المشية، والرأل: فرخ النعام، فهو يشبه حاله فى قرب وسرعة خطواته مع انحنائه وارتعاش جسده بولد النعام، وكل الناس يدركون مشية النعامة وطريقتها الخاصة التى لا يشبهها شىء فى عالم الحيوان، ووقع اختياره على النعامة بالذات؛ لأن فيها انحناء معينا وفيها اهتزاز حين المشى يشبه الاضطراب فى المشية وفيها ــ أيضا ــ ضعف ونحافة فى الساقين وهذه الأوصاف الكثيرة فى النعامة وقعت فى خاطر عروة وأرادها فى صورته، وصورة عروة كما ترى فيها حركة وشكل تدعو القارئ لطول التأمل مما يجعل التشبيه بعيدا غريبا ٠

ثم اتجه بالخطاب إلى جماعة من قبيلته فقال:

أقيموا بنى لبنى صدور ركابكم ∴ فكل منايا النفس خير من الهزل

"وبنى لبنى" قوم من عبس ولعله خصهم بالنداء دون غيرهم؛ لما رآه فيهم من شجاعة ويجوز أن يكونوا فريقا من أصحابه المقربين فناداهم بذلك للحث والإثارة والتهييج ليسارعوا فى الامتثال لأمره وقوله "صدور ركابكم" كناية عن الغزو،أى:امتطوا ظهور مطيكم وشدوا أرسانها واستعدوا للغزو لأن الموت فى المعركة خير من الموت جوعا[١].

وما ذكره عروة فى هذا البيت بيان واضح لحاجته هو ورفاقه إلى الصعلكة، فحياة الفقر التى عاشوها فى البادية وخوفهم من الجوع وشعورهم بالظلم الذى وقع عليهم من الأغنياء كل ذلك اضطرهم إلى هذه الحرفة التى رأى فيها عروة بن الورد وأمثاله إنقاذا لهم من الهلاك الحتمى، وليس لنا أن نتعجب من ذلك إذا علمنا أن الفقر كان سببا لقتلهم أولادهم[٢] .

ومما لا شك فيه أن عروة الصعاليك ورفاقه كانوا يتعرضون إلى كثير من الصعوبات التى كانت أمرا ضروريا لهم ولأمثالهم فى كل زمان، وقد كشف لنا عروة عن جانب منها فقال:

١- إذا ما هبطنا منهلا فى مخوفة ∴ بعثنا ربيئا فى المرابئ كالجذل
٢- يقلب فى الأرض الفضاء بطرفه ∴ وهن مناخات ومرجلنا يغلى[٣]

فهو يذكر أنهم إذا نزلوا "منهلا" وهو مكان عام للشرب، "والمنهل من المياه كل ما يطؤه الطريق وما كان على غير الطريق لا يدعى منهلا ولكن يضاف إلى موضعه أو إلى من هو مختص به فيقال: منهل بنى فلان، أى مشربهم وموضع نهلهم"[٤] فالمنهل الذى نزله عروة ورفاقه لم يكن مخصصا لقبيلة معينة، بل كان فى مكان موحش وأرض "مخوفة" أى يخافها الناس، لعل سبب ذلك أنه فى أرض بعيدة عن سكنى البشر

---

(١) يراجع شرح الديوان صـ٧٤، ٧٥ .
(٢) يراجع الشعراء الصعاليك صـ٢٩، ٣٠ .
(٣) الديوان صـ٧٦ ، ٧٧ .
(٤) لسان العرب مادة : نهل .

فسكنتها الوحوش وهوام الأرض، والكلام فى قوله: "منهلا فى مخوفة" وارد على المجاز العقلى، حيث وصف الأرض بالخوفة، والمخيف فى الحقيقة هو من يظن تواجده فيها من الوحوش أو قطاع الطرق فالأرض مكان الخوف وسببه، وقول عروة: "هبطنا" يدل على أنهم كانوا فى أرض مرتفعة لعلها كانت جبال أو ثنيات جبال ثم نزلوا إلى مكان فيه ماء، ولعله كان على رأس الطريق وأظن أن نزولهم كان للراحة والشرب استعدادا للاستمرار فى رحلتهم، ولا يدل ظاهر كلامه على أنهم نزلوا للغزو والهجوم وإن كانت هذه الدلالة قد تفهم ضمنيا.

وهنا يرد سؤال عن سبب بعثهم الربيئة فى هذه الحالة، ويمكن أن يقال فى الجواب أنهم بعثوه لتأمين الطريق والمكان؛ لأن موارد المياه عموما مظنة الخوف لما يعهد عندها من سباع الأرض وهوامها والمعتدين من البشر ويدل على ذلك قول عروة "مخوفة" أو يكون الربيئة ليراقب لهم ما يمكن أن يغيروا عليه .

وهذا الربيئة أى: الجاسوس الذى يراقب المكان يكون متواجدا فى "المرابئ" وهى جمع مربأ وهو المكان المرتفع من الأرض الذى تتم منه المراقبة ثم صور هذا الربيئة بأنه "كالجذل" والجذل: أصل الشجرة أو ما عظم من أصول الشجر، وقد فهم ابن السكيت من هذا التشبيه أنه دليل على ثباته وأنه لا يبرح المكان المخصص له، وهذا فهم واضح ومقبول خاصة أنه جاء فى سياق الخوف فدلالة الثبات أنسب بالمقام وهى دلالة معجمية فأصول الشجر يلزمها الثبات فى الأرض.

ولا يبعد ــ عندى ــ أن يدل "الجذل" على قوته وعظم بنيته فهو رجل قوى شجاع تم اختياره بالذات ليقاوم كل طارئ فى أرض الخوف، ووصف الربيئة بالقوة والجلادة أمر مقرر وثابت وقد أشار إلى ذلك الشاعر فى قوله:

فإما ترينى كابنة الرمل ضاحيا ∴ علـــى رقبـــة أحـــض ولا أتنعـــل[١]

فوصف الربيئة بالجذل فيه كناية عن القوة واليقظة وهذه الكنايـــة مبنية على تشبيه ــ كما هو واضح ــ فهذا الربيئة تم اختياره عن علـــم وقصد وخصوصية فيه ولذلك قال "بعثنا" التى تدل على قصد الإرسال إلى الجهة المعينة مع اليقظة والتأهب، قال ابن منظور: وكل شىء أثرته فقد بعثته، وبعثه من نومه بعثا فانبعث: أيقظه وأهبه، وبعث البعير فانبعـــث: حل عقاله فأرسله أو كان باركا فهاجه[٢].

أقول : مع احتمال اللفظ أعنى "الجذل" لهذه الدلالة التـــى ذكرتهـــا يبقى ما ذكره ابن السكيت هو الأقوى والأنسب بدليل قول عروة بعد ذلك:

يقلب فى الأرض الفضاء بطرفـه ∴ وهـــن مناخـــات ومرجلنـــا يغلـــى

فقوله: "يقلب فى الأرض الفضاء بطرفه" تجعل وصف الثبات وعدم الحركة هو الأرجح؛ لأن الأرض فضاء ليس فيها شىء يمنع الرؤية فـــلا تحتاج لتنقل الربيئة بل تحتاج لثباته وتركيزه أكثر وقد يؤكد هذا المعنى ذكر عروة للطرف فى هذا السياق، ليؤكد أهمية النظر دون الحركة وقـــد قال من قبل "فى المرابئ" فهى أماكن محددة يحيط الثابـــت فيهـــا بكـــل الجهات التى يمكن أن يأتى منها الخطر.

وقوله "وهن مناخات" أى: إبلهم مســـتريحة فـــى مباركهـــا وهـــم مستريحون أيضا ينتظرون الطعام الذى كنى عنه بقوله "ومرجلنا يغلـــى" والمرجل واحد المراجل، وهو القدر الذى يطبخ فيه، فالعبارة كناية عـــن انتظار الطعام أو قرب نضجه كما هو واضح[٣] .

---

(١) يراجع التصوير البيانى د/ محمد أبوموسى صـ٣٨٢ .
(٢) ينظر لسان العرب مادة: بعث ويراجع الفروق اللغوية صـ٢٨٤
(٣) يراجع شرح الديوان صـ٧٦، ٧٧ .

ثم انتقل عروة إلى الحديث عن أصحاب الكنيف وكيف تغيروا وانقلبوا عليه، وكلامه دليل واضح على فهمه العميق لأحوال البشر، وأن هذا الأمر لم يثن عروة عن كرمه ووفائه فقال:

ألا إن أصحاب الكنيف وجدتهم ∴ كما الناس لما أخصبوا وتمولوا

وإني لمدفوع إلى ولاؤهم ∴ بما واإن إذ نمشي وإذ تتململ(١)

وقد استفتح كلامه بـ"ألا" لينبه على أهمية ما بعدها ثم أتى بأسلوبه مؤكدا بإن، وهذا التأكيد راجع إلى ما ثبت واستقر فى نفسه مما وجده من صفات أصحاب الكنيف، وليس التوكيد راجعا إلى أن هذا الخبر الذى ذكره منكر أو مشكوك فيه.

وأصحاب الكنيف: جماعة من عبس كانوا فى فقر وجوع فأغاثهم عروة وأنقذهم، وقد أضافهم إلى الكنيف لينبه على سوء حالهم وشهرة فقرهم ، كما أن الإضافة هنا حققت الإيجاز وأغنت عن تفصيل متعذر.

والكنيف: الحظيرة من الشجر تحظر عليهم كما تحظر على الإبل والغنم فتقيهم الريح والبرد، وقول عروة: وجدتهم كما الناس ... تشبيه يدل على فهم عروة لطبائع الناس ــ كما قلنا ــ وقد أدخل عروة كاف التشبيه على "ما" ولم يقل: وجدتهم كالناس، ويوجد فرق كبير بين العبارتين إن "ما" التى ذكرها عروة ــ وقيل عنها زائدة ــ أضفت على الأسلوب شيئا من المعانى المستورة التى لم يشأ عروة أن يصرح بها، وإن هذا الامتداد الصوتى الذى فى هذا الحرف إنما هو تعبير عن هموم النفس، فهو خارج من فؤاد مقروح متوجع يلفظ ناره فى الهواء والفرق واضح بين قولنا: وجدتهم كالناس وقول عروة: وجدتهم كما الناس، إن كلام عروة جاء بعد أن استقرت المعانى فى نفسه وطال لبثها فى عقله

---

(١) ديوان عروة صـ٧٧، ٧٨ .

فعبر بأسلوب يدل على ذلك، ولو قال: وجدتهم كالناس لكان الأسلوب سريعا كسرعة الإحساس بالمعانى ومفاجأتها للنفس والفرق كبير لمن تأمل! (١).

وقوله: "لما أخصبوا وتمولوا" وصف صالح للمشبه وصالح ــ أيضا ــ للمشبه به، وإن كنت أرى أنه للمشبه أقوى وأولى؛ لأنه يقصد: أننى رأيت أصحاب الكنيف وهم أقاربى حين نالوا الخصب وسعة العيش صاروا كالناس الغرباء الذين لا يعرفوننى ولم يكن بيننا معروف أبدا.

أما إن كان الوصف صالحا للطرفين فيكون المعنى أنه يشبه أصحاب الكنيف حين اغتنوا ونسوا بحال كل الناس الذين يغتنون بعد فقر؛ فطبائع النفوس واحدة فى البشر عموما.

ثم أكد عروة أنهم فعلوا ذلك بعد أن عاهدوه على الولاء والطاعة فى أثناء فقرهم فقال:

وإنى لمدفوع إلى ولاؤهم ∴ بماوان إذ نمشى وإذ نتململ

فهو يذكر أنهم كانوا هزلى من شدة الجوع بماوان ــ وهو موضع ببلاد الحجاز ــ حيث كانوا لا يقدرون على المشى حتى يتمللون، ويروى نتململ يعنى: يأخذنا الملل من شدة الضعف فقام عروة بأمرهم حتى إذا نالوا الغنى وقويت أبدانهم صاروا كالناس الأباعد ليس لهم شكر كأنهم لا يعرفونه!! والعجيب أنهم دفعوا إليه الولاء، وكانوا ينسبون إليه فيقال: موالى عروة، وأصحاب عروة، فلما أخضبوا خاصموه وعادوه!!(٢).

وأريد أن أتوقف أمام لفظة استعملها عروة فى هذا السياق وهى كلمة "الكنيف" وإنما دعانى لذلك أن هذه اللفظة عدت من الألفاظ المبتذلة التى يقبح استعمالها؛ لأن لها معنى آخر يستعمل على ألسنة العامة

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت صـ٧٨ .
(٢) يراجع السابق صـ٧٨ .

ويقبح ذكره، بمعنى أن "الكنيف" لها معنى أصلى معجمى وهو الساتر من حظيرة وغيرها ــ كما ذكرت من قبل ــ ثم استعملت فى الآبار التى تستر الحدث واشتهرت بذلك فى الاستعمال٠

ومما لا شك فيه أن قانون التطور يلحق جميع لغات العالم، فهو ــ كما قال علماء أصول اللغة ــ ظاهرة شائعة فى كل اللغات يلمسها كل دارس لمراحل نمو اللغة وأطوارها التاريخية، والتطور يعنى تغير دلالة اللفظ من زمن إلى زمن آخر فيضيق معنى الكلمة، أو يتسع ، أو ينتقل المعنى وهنا يحدث انحطاط الدلالة أو رقيها ويحدث أيضا الابتذال، وقد وقع هذا بالفعل فى اللغة العربية وإن كنا نجهل زمن تطور الدلالات؛ لأن معاجم اللغة العربية لم تذكر لنا ذلك، من ذلك عبارة "طول اليد" كانت فى زمن ما تطلق على السخاء والجود وقد وردت فى السنة المباركة فى مخاطبة الرسول (ﷺ) لأزواجه بقوله: "أسرعكن لحاقا بى أطولكن يدا..."[١] ثم صارت اليوم وصفا للسارق، ومثل هذا يقال فى الألقاب والرتب التى يختلف معناها باختلاف الظروف السياسية كما فى لفظ "باشا" و"أفندى" وغيرها من الألقاب التركية التى مرت بها تطورات فى دلالتها وانحط قدرها على توالى الأيام وصارت فى آخر عهدها ذات قدر تافه وأصبحت أقل الرتب بعد أن كان لها خلال القرن التاسع عشر مركز هام ومكان مرموق، ومثل هذا يقال فى كلمة "حاجب" التى كانت تعنى فى الدولة الأندلسية "رئيس الوزراء" ثم صارت على النحو المألوف الآن٠

بل هناك كلمات يصيبها سوء الحظ فى الاستعمال مثل كلمة "البربور" التى أصبحت الآن قبيحة مبتذلة والتى انزوت فى استعمالها فلا نكاد نسمعها إلا بين العامة وهم يطلقونها على المخاط النازل من الأنف فى حين أن معناها فى الأصل: الحشيش من البر، ومن الألفاظ الدائمة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى جـ١٦ صـ٨ وينظر فتح البارى جـ٣ صـ٣٣٥ ٠

التطور والتغير فى دلالتها تلك الألفاظ التى تشير إلى التبول والتبرز فلا يكاد اللفظ يشيع حتى يمجه الذوق الاجتماعى وتأباه الآداب العامة من ذلك كلمة: الكنيف.

... وهكذا مما نراه فى واقعنا من ألفاظ تجرى على ألسنة العامة وتقل أو تنعدم على ألسنة الخاصة(١).

وكلمة "الكنيف" كان لها معنى معجمى اجتماعى مشهور وكانت الكلمة مستعملة فى هذا المعنى فى زمن عروة بن الورد وفيما بعده حتى زمان الأصفهانى فقد قرأت لأبىالفرج الأصفهانى عبارته: "ويكنف عليهم الكنف"(٢) ولو كانت دلالة الكلمة قد أصابها التغير قبل الأصبهانى أو فى زمانه لاستعمل عبارة أخرى تدل على المعنى الأصلى للكنيف والذى ذكرته من قبل من أنه: الحظيرة التى تحظر على الإبل أو الغنم أو البشر لتقيهم البرد والحر إذا التطور أصاب هذه الكلمة فى زمان متأخر ولا ندرى على وجه التحديد متى وقع هذا التطور.

ولكن من الراجح بل من المؤكد أنه وقع قبل زمان ابن سنان الخفاجى؛ لأنه ــ فيما أعلم ــ أول من تكلم فى هذه القضية حيث قال وهو يذكر شروط فصاحة الكلمة: "ألا تكون الكلمة قد عبر بها عن أمر آخر يكره ذكره فإذا أوردت وهى غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت وإن كملت فيها الصفات التى بيناها ومثال هذا قول عروة بن الورد العبسى:

قلت لقوم فى الكنيف تروحوا ∴ عشية بتنا عند مأوان رزح

والكنيف أصله الساتر ومنه قيل للترس كنيف، غير أنه قد استعمل فى الآبار التى تستر الحدث وشهر بها فأنا أكرهه فى شعر عروة وإن

---

(١) تراجع ظاهرة التطور وانتقال الدلالة والابتذال فى "دلالة الألفاظ" للدكتور إبراهيم أنيس صـ١٢٢ : ١٦٧ .

(٢) الأغانى جـ٣ صـ٦٣ .

كان ورد موردا صحيحا؛ لموافقته هذا العرف الطارئ، علـــى أن لعـــروة عذرا وهو جواز أن يكون هذا الاستعمال حدث بعده بل لا أشك أنه كذلك؛ لأن العرب أهل الوبر لم يكونوا يعرفون هذه الآبار، فهو وإن كان معذورا وغير ملوم فبيته مما يصح التمثيل به"[١].

وحين نتأمل كلام ابن سنان نراه يقدم لعـــروة عـــذرا لأن لفظه ورد موردا صحيحا، ويعترف أن المعنى الجديد للفظ عرف طارىء حدث بالتأكيد بعد عروة، ومع هذا يذكر أنه يكرهه فـــى شعر عروة وأن البيت مما يصح التمثيل به، وهذا ما لا أوافقـــه عليه مع إعجابى الشديد بابن سنان؛ لأن التطور ــ كما قلت ــ حدث بعد عروة بن الورد ولم يحدث فى زمانـــه ولا قبلـــه وأن عروة استعمل الكلمة فى دلالتها العرفية وأصل وضـــعها عنـــد العرب ولذلك كررها فى شعره. وأود أن أذكر أمرا دقيقا وهو أن الابتذال الذى حدث لهذه الكلمة ليس فى أصل الوضع بمعنى أن الكلمة لم تستعمل فى معنى سخيف ولم تبتذل لأنها كثرت علـــى ألسنة العامة وسفلة الناس بل الابتذال حصل لأن قانون التطور أصابها فاستعملت فى هذا المعنى الجديد.

وبعد هذا الإطناب الذى حدث فى هذا السياق ووقع منا بقصد؛ لأنه أضاف فى رأيى فائدة فى الكشف عن حقائق اشتهرت على ألسنة كثيـــر من علماء البلاغة ولم تناقش على الوجه الذى يكشف عن المراد فيهـــا أقول إن صاحب كتاب "الإشارات والتنبيهات" فى علم البلاغة كان أكثـــر العلماء توفيقا فى هذه القضية الشائكة حين ذكر بيت عروة بن الورد ثم قال معقبا عليه: "والكنيف أصله الساتر، إلا أنه يطلق على بئر الغـــائط،

---

(١) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى صـ٧٥ طبع محمد على صبيح.

ولعل هذا العرف حدث بعد عروة، فيعذر، ولا يعذر من استعمله بعد العرف"[١].

وكلام محمد بن على الجرجانى ــ رحمه الله ــ مع إيجازه الشديد حقق الفائدة، فبين أن الكلمة تطورت دلالتها فى بئر الغائط وهذا حدث بعد عروة فهو معذور فى الاستعمال لأنه استعمل الكلمة فى دلالتها العرفية الأصلية، أما من استعمل هذه الكلمة بعد هذا التطور فلا يعذر.

وإنما شددت على ذلك وأطنبت فيه لأن قانون التطور فى اللغة بهذا البيان الذى ذكرناه صالح لأن يصيب أكثر كلمات العربية أو بعضها فيحدث فى أزمنة قادمة أن تبتذل كلمة لأنها تدل فى مستقبل الزمان على معنى قبيح فهل يعيبنا اليوم أننا نستعملها فى دلالة تجعلها غير مبتذلة؟! أسأل الله أن يرزقنا توفيقه وأن يرشدنا إلى الصواب.

ثم أنهى عروة قصته مع الصعاليك بهذه الأبيات التى تعد ــ فى رأيى ــ فريدة فى الشعر العربى القديم كله، كما تعد أثرا خالدا من آثار عطف ورحمة وصبر عروة بن الورد على الصعاليك، وأنه يستحق بهذه الأبيات أن يلقب بـ"عروة الصعاليك" يقول عروة:

١ـ فإنى وإياكم كذى الأم أرهنت ∴ له ماء عينيها تفدى وتحمل
٢ـ فلما ترجت نفعه وشبابه ∴ أتت دونها أخرى جديد تكحل
٣ـ فباتت لحد المرفقين كليهما ∴ توح مما نابها وتولول
٤ـ تخير من أمرين ليسا بغبطة ∴ هو الثكل إلا أنها قد تجمل
٥ـ كليلة شيباء التى لست ناسيا ∴ وليلتنا إذ من ما من قرمل[٢]

---

(١) انظر الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة صـ٨ ط دار نهضة مصر ويراجع فى هذه القضية منهاج البلغاء وسراج الأدباء صـ١٥٠، ١٥١ وصـ٣٨٥ ويراجع عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص جـ١ صـ٩٣ وعلم الفصاحة العربية د/ محمد على الخفاجى صـ١٢٣ ط دار المعارف.

(٢) ديوان عروة صـ٧٩ : ٨١ .

وكلام عروة هنا عجيب ــ حقا ــ ويحتاج إلى طول تأمــل وإلــى مراجعة العبارات، والألفاظ المفردة التى اختارها بعناية فائقة لتعبر عمــا انطوت عليه نفسه، وكيف أحس عروة بكل الأشياء حتى فرسه "قرمــل" الذى لم يخنه ولم يغدر به كما الناس!

ولنتأمل اختياره للأم بالذات ــ الأم التى لها صغير هو أملها الوحيد فى الحياة ، ثم مقابلتها بأخرى جديد تكحل، والمجئ بالثكــل والتجمــل، وليلة الشيباء إلى آخر هذه المفردات التى توضح لقــارئ شــعره أنــه اختارها بعناية فائقة .

وقد أتى فى هذه الأبيات بصورة تشبيهية تمثيلية تكاملت أجزاؤها وتلاحمت مفرداتها حتى اكتمل المعنى الذى أراده عروة، ولا يصح فــى دراسة هذه الصورة أن نجزئها ونقسمها فنقول مثلا: شبه نفســه بــالأم وشبه الصعاليك فى ضعفهم بالولد الصغير، وشبه المال بالمرأة وهكــذا مما قد يتوهم ــ هنا ــ بل الصواب ــ كما قرر البلاغيون فــى التشــبيه التمثيلى ــ أن ننظر إلى الصورة مكتملة الأجزاء؛ لأنهــا فــى اكتمالهــا تؤدى المعنى المراد وتبين الأشياء التى أرادها عروة فــى هــذا الوقــت بالذات، أرادها مكتملة مجتمعة؛ لأنها وقعت هكذا، ولم يشأ أن يبترهــا؛ لأن ذلك يفسدها؛ فنفس عروة قد تزاحمت فيها الهمــوم وتلاقــت فيهــا أحداث موجعة لم تكن وليدة ساعة أو يوم، أو شهر، أو سنة، بــل هــى أحداث جاءت فى زمن طويل، تغيرت فيه أحوال، وتحولت فيــه نفــوس رجال، ووقع غدر لم يخطر يوما لعروة على بال!!

إذا طول هذه الصورة ليس عجيبا، لأن له دوافع نفسية خاصة[١] ، من أجل ذلك أورد عروة أسلوبه مؤكدا، لا لأن ما ذكره موضع شــك أو إنكار من الصعاليك؛ بل لأن نفسه قد امتلأت من هذه الحقيقة التى أحسها

---

(١) يراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٠٤ .

وعاشها طويلا ثم أعلنها فيهم وهى ــ كما قلت ــ تشبيه تمثيلى، فقد شبه حاله فى عطفه على الصعاليك وتضحيته من أجلهم ثم تغيرهم وانقالبهم عليه بعد الثراء والشبع بحال أم لولد صغير ضعيف ظلت ترضعه وتفديه وتحمله وتتحمله حتى إذا تم شبابه تزوج بامرأة فغيرته فانقلب على أمه ونسى جميلها فباتت أمه فى هم دائم وبكاء لا ينقطع.

واختار عروة الأم والصغير فى هذا المقام لأنه أراد أن يصور حنانه وعطفه على الصعاليك وفى نفس الوقت يبرز ضعفهم وقلة حيلتهم حين أنقذهم وضحى من أجلهم.

وقد كنى بقوله: "جديد تكحل" عن موصوف وهو: الزوجة، وكان دقيقا فى اختياره عليما بدلالات الألفاظ فاختار من أوصاف الزوجة وصفين اثنين "جديد، تكحل" ليبين أمرين، الأول: أن هذا المال وهذا الثراء الذى جاء الصعاليك إنما هو أمر حادث هم قريبو العهد به لم يألفوه من قبل؛ ولذلك لم يحسنوا التعامل معه، وهذا أدى إلى تغيرهم المفاجئ ، الأمر الثانى الذى أراده من "تكحل" هو الرمز إلى إغراء المال للصعاليك حتى أفقدهم صوابهم، كما تغرى المرأة الرجل بالكحل وغيره مما تتزين به النساء فيتصرف فى هذا الوقت وكأنه على غير هدى!

وعروة ــ هنا ــ يدل على فهمه العميق لإغراء المال الرجال، وكيف يدب إلى نفوس البشر فتتغير وتنقلب أحوالها حتى تنسى أقرب من أحسنوا لها، وليس أنسب فى هذا السياق من ذكر الأم، ووليدها ثم الزوجة التى امتلكت أمر زوجها.

وقد أطال عروة فى وصف أحوال الأم ؛ لأنها بطلة هذه القصة التى تم فيها الصراع بين كثير من الشخصيات وهو هنا يبوح بشىء من أسراره الدفينة؛ لأنه صاحب نفس مكلومة محروقة، وهو بهذا الإعلان يلفظ نارا مشتعلة فى فؤاده يلفظها فى الهواء وفى الكون الفسيح لعله

بهذا يخرج الداء الذى كاد يقتله إنه الهم الذى لـم يسـتطع مخلـوق أن يقوى أمامه مهما كانت بطولته!

يصور عروة حال هذه الأم المكلومة وهو فى الحقيقة يصور هـم نفسه فيقول:

فباتـت لحـد المـرفقين كليهمـا ∴ توحـوح ممـا نابهـا وتولـول
تخـير مـن أمـرين ليسـا بغبطـة ∴ هـو الثكـل إلا أنهـا قـد تجمـل

هذه الأم الحزينة حين رأت تغير ابنها "باتت لحـد المـرفقين" أى: اتكأت على مرفقيها وباتت مكبة منكسة الرأس . وهى صورة تتكرر دائما فى حال الحزن حين يجلس الحزين على الأرض ويضع كفيه على مرفقيه ثم يسقط رأسه على ذراعيه، إنه يفعل ذلك جالسا فى أغلب أحواله، وقد يفعل ذلك فى أثناء الوقوف حين يستند إلى جدار أو غيره، ليس أمر هذه الأم قاصرا على تلك الهيئة بل هى مع ذلك "توحوح"، أى: ترفع صـوتها بالبكاء حتى تصيبها بحة من طول البكاء مع ارتفاع الصوت، وهى أيضا "تولول" أى تنوح وتدعو بالويل.

وتخير عروة "فباتت" أى: زمن الليل خاصة لأنـه وقـت الخلـوة والوحدة فتتجدد على النفوس أحزانها وتسرى إليها آلامها حيث لا يجـد المهموم من يجالسه أو يؤانسه، فهى ساهرة الليـل ترعـى النجـوم لا غمض لها، تبكى وتنادى ولدها قائلة له: "ولدى ما أصنع؟ وإنما هذا مثله ومثل أصحاب الكنيف حين قالوا له: أعطنا المرأة أو اجعلها نصيبا واحدا يأخذها من شاء فأخذ يتخير ما يصنع ثم يرجع إلى نفسه فيقـول: بنـو عمى وأفسد . ويروى: ولا أفسد صنيعى"[١].

وقوله: "تخير من أمرين ليسا بغبطة" يعنى: أمامها خيار من اثنين، وكل واحد منهما لا يسر؛ لأن كل خيار منهما مؤلم موجـع، ثـم فصـل

---

(١) انظر شرح ابن السكيت صـ٨٠ .

الخيارين فقال: "هو الثكل إلا أنها قد تجمل" يعنى: الخيار الأول: أن يموت ابنها فتشتفى من امرأته فتثكله على حد فهم ابن السكيت للثكل فى البيت أو أن تعتبره كمن فقد أو مات وتقنع نفسها بأنها قد ثكلته يعنى: كأنه مات بالفعل رغم وجوده فى فهم شارح آخر، وأرى أن فهم ابن السكيت هو الأقرب؛ لأن حال هذا الولد وتفضيله لامرأته على أمه قد أصابها بما يشبه الجنون فكأنها صارت تدعو عليه بالهلاك؛ لإحساسها بالظلم، وهذا شأن المظلومين المقهورين ٠

الخيار الثانى: أن تصبر على أن تكون امرأته آثر عنده منها، وقد اختارت ذلك بالفعل؛ ليعيش ابنها ٠

وهكذا فعل عروة فلم يشأ أن يقتل أولئك الصعاليك بل أعطاهم وأرضاهم وتركهم يختارون المال دونه، وبهذا نرى أن عروة راعى كل أجزاء الصورة وأخذها كلها وهذا يدخل صورته فى التشبيه البعيد كثير التفصيلات؛ لأنه ليس أمرا جمليا[١] ٠

ثم قال :

كليلة شيباء التى لست ناسيا ∴ وليلتنا إذ من ما من قرمل

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت صـ٧٩، ٨٠ وتراجع قصته مع الصعاليك فى شأن تلك المرأة التى اراد أن يجعلها نصيبا له فى الأغانى جـ٣ صـ٦٣، ٦٤ وفى شرح الديوان صـ٧٧ ٠

تقول العرب إذا زفت العروس إلى زوجها فافتضها من ليلتها: باتت بليلة شيباء أو، بليلة الشيباء فإذا لم يفتضها قيل: باتت بليلة حرة[١].

إن عروة يشبه الداهية التى أصابته من أصحاب الكنيف، ومحاولتهم قهره والتغلب عليه بحال العروس التى غلبها زوجها على نفسها فافتضها ليلة زفافها.

ثم يتذكر ليلة أخرى من الليالى السيئة التى مرت عليه ولولا وفاء وجودة فرسه "قرمل" لهلك عروة فى هذه الليلة، إنه يصور فرسه فى صورة الإنسان الذى يضحى ويمن ويفعل الأعاجيب فى البطولة والشجاعة من أجل نجاة صاحبه والكلام وارد على طريق الاستعارة المكنية، قصد عروة من وراء هذه الاستعارة أن يشيد بوفاء فرسه وفضله عليه فى تلك الليلة الشديدة المخاطر وهو بهذا يعرض بأولئك الصعاليك الذين خانوه وغدروا به ولم يتذكروا مواقفه نحوهم وتضحيته من أجلهم وهم البشر ــ يخونون ــ وهذه الدواب تحفظ العهد وتخلص الود، إن المقارنة لعجيبة حقا فيها دليل واضح على زهد عروة فى كل الناس، ولولا حكمته وصبره عليهم فى حالهم الذى ذكره لقضى عليهم، أو لقضوا عليه، فهلكوا جميعا[٢].

وقد كرر عروة التشبيه بليلة الشيباء فقال:

فكنت كليلة الشيباء همت ∴ بمنع الشكر أتأمها القبيل[٣]

وعروة فى هذا البيت يخاطب أحد الذين جفوه وانتقدوه حتى كادوا يفتقدونه بسبب ذلك فهو يصور ذلك الشخص فى حاله مع عروة وعدم قدرته على مواجهته والتغلب عليه بحال العروس التى زفت إلى زوجها

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت صـ٨١ وترجع مادة: شيب فى اللسان والقاموس المحيط.

(٢) يراجع شرح ابن السكيت صـ٨١.

(٣) الديوان صـ٨٤.

وهمت أن تمنعه شكرها أى: فرجها ، "فأتأمها القبيل" أتأمها أى: أفضاها والقبيل: كناية عن الزوج؛ لأنه يقابلها، وعروة ــ كما ترى ــ أراد مــن المشبه به صفة واحدة فقط وهى ما عرف عند العــرب مــن أن "ليلــة الشيباء" تطلق على البكر التى غلبها زوجها فافتضها من ليلتها، فــأراد عروة أن يستعملها فى الغلبة وعدم القدرة أو التحكم فى بعض الأشــياء التى تواجه الشخص٠

الفصل الثانى
بلاغة التشبيه فى حديثه عن المرأة

كان حديث عروة الصعاليك عن المرأة منضبطا فيه عفة وحيـــاء، وفيه أدب ووقار، مع أنه عاش فى الجاهلية وقد تهيأت له أسباب تدعوه ليفعل ما يشاء، خاصة أنه زعيم مشهور نال ما نال من إعجاب النســـاء به، على عادة كثير من النساء فى ميلهن للرجل القوى الشجاع.

فالمرأة ــ فى غالب أمرها ــ تميل للرجل الذى يحميها ويعزهـــا، ويجعل لها مكانة سامقة فى قبيلتها وأهلها المقربين، وقد تنجب منه ابنا قويا شجاعا تحقق به زينة الحياة الدنيا التى يسودها ــ فى ذلك الزمـــان ــ قانون الجاهلية الذى لا يحترم غير الأقوياء. أقـــول: مـــع كـــل هـــذه الظروف وغيرها لم نجد عروة بن الورد عربيدا ماجنا وقد تهيأت لـــه ــ كما قلت ــ أسباب تمكنه من ذلك لو شاء.

وحديث عروة عن المرأة وقصصه معها يرسم لنا صورة واضـــحة لشخصيته فى هذا الجانب، وهى صورة الرجل الحيى الوفى، ولعل هـــذا كان سببا من أسباب احترام خلفاء بنى أمية له وحبهم للإصهار إليـــه ــ كما ذكرنا فى التمهيد .

ونبدأ فى ذكر التشبيه فى حديثه عن المرأة وأخباره معها مراعين الترتيب كما ورد فى الديوان الذى بين أيدينا.

يحكى عروة بن الورد ذلك الحديث الذى دار بينـــه وبـــين إحـــدى نسائه وكانت تسمى "تماضر" ويبدو لنا من خلال ما ذكره عن النساء أنه كان كثير الزوجات، وكلام عروة ــ هنا ــ يحتاج إلى تأمل طويل؛ لأنه ــ فيما أرى ــ يفسر لنا المنهج النفسى الذى استقر فى نفوس الصـــعاليك، ويبرز لنا الدواعى التى دعتهم إلى الصعلكة، فهناك ــ كما هو واضح من

شعره ــ أسباب ملحة دعتهم لممارسة هذه الحرفة مقتنعين بها اقتناعا تاما ٠

يقول عروة :

قالت تماضر إذ رأت مالى خوى ∴ وجفا الأقارب فالفؤاد قريح
مالى رأيتك فى الندى منكسا ∴ وصبا كأنك فى الندى نطيح
خاطر بنفسك كى تصيب غنيمة ∴ إن القعود مع العيال قبيح
المال فيه مهابة وتجلة ∴ والفقر فيه مذلة وفضوح(١)

وقبل دراسة الصورة التشبيهية فى هذه الأبيات يجب أن نتأمل مفرداتها التى اختارها عروة وكون بها أسلوبه الشعرى ، تأمل قوله: "مالى خوى" واجعل ذلك فى صحبة "جفا الأقارب" وانظر إلى دلالة ذلك فى مجتمع جاهلى عظم المال، وحرمة القبيلة ووحدتها وتكاتف أفرادها، ثم تأمل قول امرأته له: "مالى رأيتك فى الندى منكسا وصبا"؟ وانظر دلالة هذا الاستفهام فى هذا المقام، وكيف ورد من امرأة وضعت زوجها فى هذه الصورة المهينة "كأنك فى الندى نطيح"؟ واختيارها الندى فى هذا السياق وكأنه صار حديث الناس جميعا فى قبيلته حتى النساء!! وكيف يكون تأثير ذلك كله على نفس رجل شهم أبى شجاع أبى الذل والانكسار والهوان ٠

كما أن امرأته كانت تدرك العواقب التى ستواجهه إذا صار صعلوكا وهذا واضح فى قولها "خاطر بنفسك" فهى ترجوه وتتوسل إليه وتلح عليه أن يضحى بنفسه؛ لينقذ عياله الذين لا ينقذهم سواه!!، ثم لا تكتفى "تماضر" وهى الرشيدة الحكيمة؛ والتى كانت ذات قيمة عالية فى قبيلتها، وهذا ما يلوح لى من ذكره لاسمها هنا، أقول: لم تكتف بما قالته بل أضافت إليه قولها:

المال فيه مهابة وتجلة ∴ والفقر فيه مذلة وفضوح

---

(١) الديوان صـ٢٨ ٠

إن "تماضر" تدرك أن زوجها يعلم ذلك ولكنها تهيجه وتلهب عزيمته وتوقد همته، فتذكر له هذه المعانى التى استقرت فى نفوس الناس، تذكرها بطريق المقابلة لتقررها فى نفسه حتى تزيده تذكرا لما هو فيه فتزيده إقداما على المخاطرة بلا تردد.

ألست توافقنى ــ هنا ــ أن هذه المعانى الجزئية التى صرح بها عروة فى هذا السياق تكشف لنا عن فوران وغليان دار فى داخل هذا الرجل الذى رأى نفسه بهذه الصورة المهينة فى عين زوجته وعيون الناس جميعا.

إن كلام عروة بن الورد هنا يفسر لنا السبب فى إقدامه على الإغارة والسلب التى اضطر إليها اضطرارا، ولم يقدم عليها مختارا.

وامرأته تخاطبه بذلك وهى تعلم أنه يكره الجلوس مع العيال ويكره أن يكون منكسا فى مجتمع القوم، إنما قصدت أن يعلن ما فى نفسه من غضب وانقلاب على هذا الواقع المؤلم القبيح!!

وقوله: "قالت تماضر..." إعلان وكشف عن هذا الحديث الذى دار بينهما، وأظن أنه كان مقتنعا به، مقدرا لها قولها الحق وإحساسها الصادق بزوجها ولذلك صرح باسمها وأعلن قولها.

إنه يعلم أنها ذكرت واقعا لا تحب أن ترى زوجها فيه، فدعته لفعل أشياء تبعده عنها وهى فى أشد الحاجة لقربه، وتودى بحياته وهى أحرص الناس على بقائه فى الحياة؛ لأنها تحب أن تبقى رأسه مرفوعة بين الناس وأن تظل له مكانته وهيبته بين أقاربه الذين جفوه حين رأوه فقيرا؛ فقولها ليس شماتة ولا تبكيتا وإنما هو إرشاد ومواساة وتأييد ، ولو قال هذا القول أحد غير "تماضر" لما أثر فيه كتأثير كلامها؛ لأنه رآها صادقة فيما قالت ومخلصة فيما دعته إليه.

إن "تماضر" لم تشأ أن يرحل عنها زهدا فيه لعشقها غيره كلا إنها "رأت مالى خوى" إنها رأت أحوالا وتغيرات عجيبة لا تناسب رفعته وسمو همته، وتأمل قوله: "خوى" وراجع دلالتها المعجمية وما تحمله من معان اجتماعية عرفية كثيرة منها: التهدم والسقوط والخلو وذهاب الشىء وضياعه وكأنه قد باد وهلك ولم تبق منه بقية[١] .

إذا الكلمة تعنى ضياع كل ماله، وفقدان الأمل فى انقاذه، ومع هذا الحال السيئ "جفا الأقارب" أى: ابتعدوا عنه وفارقوه ولم ينظروا فى حاله وحال عياله فلم يصلوه ولم يبروه والكلمة دالة على غلظ طبعهم وسوء خلقهم[٢] .

وقد عبر عروة عن ألمه النفسى من ذلك بقوله: "فالفؤاد قريح" إن قلبه جرح وعقله تحير ونفسه باتت ذليلة منكسرة؛ لأنه أحس بالهوان والضياع وهو مع كل هذا لم يهجر مجلس القوم "الندى" ولم يعتدى عليهم ولم يشك جفوتهم، بل لازمهم فى هذه الصورة المهينة التى رأتها زوجته وأفراد قبيلته.

وقد أفزعها حاله فوجهت له هذا الاستفهام التعجبى "مالى رأيتك فى الندى منكسا وصبا"؟! فهى تنكر حاله وتتعجب مما حدث له، وتتألم مما هو فيه، وتأمل أسلوبها "مالى رأيتك"؟! فهى لم تقل له لماذا أنت هكذا؟ بل تعجبت من نفسها وكأنها هى التى لا تحب لنفسها أن تراه هكذا، وكأنه لا ينبغى أن يكون كذلك .

إن طريقتها فى العبارة دقيقة حقا وتحتاج إلى طول تأمل!!

ثم صورته بهذه الصورة الدالة على الضعف والهوان "كأنك فى الندى نطيح" إنها تشبه هيئته فى جلوسه وحال القوم فى الانصراف عنه

---

(١) تراجع مادة "خوى" فى اللسان.
(٢) تراجع مادة "جفا" فى اللسان .

بحال عنز نطحه ثور بقرنه فلم يعد قادرا على المحافظة على تماسكه، والتشبيه كما هو واضح وارد للتقبيح أى تقبيح الحالة والهيئة التى وصل إليها حتى ابتعد عنه الناس كأنه يتشاءم منه.

إنها صورته فى صورة العنز أو الشاة التى نطحت فانزوت فى هوان تتأمل جراحها وهى تنزف .

فقد غابت شمس كرامته وأفل نجم شهرته وكاد يعد فى الأموات.

وقد ذكرت الندى وهو مجلس القوم وصورته بذلك حين خوى ماله؛ لأن "من عادة العرب عند إخلاف الأنواء وإمحال السنة الشهباء أن تبرز أماثل كل قبيلة إلى ناديهم فيواسوا بفضلات الزاد ويصرفوا ما يقمر فى الميسر إلى محاويج الحى..." (١) .

ونطيح : فعيل بمعنى مفعول أى منطوح ، وهذه الصورة ــ كما قلنا ــ تبرزه فى صورة مهينة يتشاءم منها.

وقولها: "خاطر بنفسك" أى عرض نفسك للخطر والهلاك لسبب ملح وهو أن تصيب غنيمة تعود على عيالك. وتأمل تنكير "غنيمة" فهى تريد أقل شىء من القوت الذى ينقذ عياله، ثم انظر إلى المجئ بـ"إن" المؤكدة وكيف ربطت الكلام وسبكته بهذا النظام.

وقد أشاد الإمام عبدالقاهر بهذا الحرف وبين أهميته فى ربط الكلام ــ كما قلنا سابقا ــ وأنه لا سبيل إلى إسقاطها وأن لها تأثيرا وسحرا لا يمكن أن تجده إذا أسقطت إن وأتيت بالفاء مثلا فقلت: فالقعود مع العيال قبيح، فهى ذات نفس مشحونة وزوجها كذلك وكلامها له قيمة عالية من أجل ذلك حسن ــ أيضا ــ توكيده(٢).

---

(١) ينظر تهذيب الخواص من درة الغواص صـ٢١٦ ط أولى نادى مكة الثقافى .

(٢) يراجع دلائل الإعجاز صـ٣١٩، ٣٢٢ وما بعدها.

وقالت: "مع العيال" ولم تقل: مع عيالك، لأنها تقرر حقائق عامة وصفات ثابتة وكلامها دليل على حكمتها ورجاحة عقلها؛ فليس الأمر القبيح مقصورا على أن يكون القعود مع عيال عروة بن الورد خاصة؛ بل كل رجل قعد مع عياله وكان حاله كحال عروة حكم على قعوده بالقبح؛ وسبب ذلك أن العيال يحتاجون من يعولهم ويقوم على أمرهم فإذا كان الوالد وهو مظنة الكسب والقوت قد قعد عن ذلك ولا عذر له فمن غيره يقوم بأمرهم؟!

ثم تأمل هذه المقابلة الواقعة فى البيت الأخير وكيف أظهرت أثر كل من المال والفقر فقد قابلت بين الذلة والفضوح المسببين عن الفقر وبين الجلالة والمهابة المسببتين عن الغنى الذى عبر عنه بالمال وكل هذه دواع تثير أحاسيس كل رجل شهم نبيل فتدعوه إلى التحرك الفورى لجلب القوت لنفسه وزوجه وعياله ليعيش غنيا فى وسط مجتمع يحترم الأغنياء[١] .

ويحدثنا عروة الصعاليك عن قصته مع "سلمى" التى كناها بأم وهب، وقد مكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له أولادا، ثم فارقته فى ظروف عجيبة، حكى لنا طرفا منها فقال:

١- وقالوا ما تشاء؟ فقلت ألهو ∴ إلى الإصباح آثر ذى أثير
٢- بآنسة الحديث رضاب فيها ∴ بعيد النوم كالعنب العصير
٣- أطعت الآمرين بصرم سلمى ∴ فطاروا فى عضاه اليستعور
٤- سقونى النسء ثم تكنفونى ∴ عداة الله من كذب وزور
٥- ألا وأبيك لو كاليوم أمرى ∴ ومن لك بالتدبر فى الأمور
٦- إذا لملكت عصمة أم وهب ∴ على ما كان من حسك الصدور[٢]

هذه الأبيات تحكى مؤامرة دبرت بإحكام لعروة بن الورد وقد أدرك عروة ما دبر له، وندم على غروره وتسرعه، إنه كان يظن أن "سلمى"

---

(١) يراجع شرح الأبيات فى ديوانه صـ٢٨ .
(٢) ديوان عروة صـ٣٨، ٣٩ .

ستختاره ولا تختار عليه، وكأنه ما كان يدرك الظروف المحيطة بها، وكيف كان حقد الغطفانيات عليها؟ (١).

ومما لا شك فيه أن ما حدث فى تلك الليلة ظل يؤلم عروة طوال حياته، وقد فصل فى هذه الأبيات جانبا من كيد أعدائه، ومن تسرعه، ثم ندمه على ما حدث، إنهم اجتمعوا عليه فى هيئة الناصح المحب "وقالوا ما تشاء"؟ فهم يعطونه كل الخيارات فى تلك الليلة الساهرة الماكرة التى وقع فيها الفراق الأبدى بينه وبين "سلمى".

والاستفهام ــ هنا ــ حقيقى، ووراءه دلالات نفسية تدعونا لتأمل كلام عروة؛ إنهم يعلمون أنه لن يشاء فى هذا الزمن المتبقى غيرها، وسؤالهم له يشبه سؤال القاضى لمن حكم عليه بالإعدام حين يقول له: ماذا تريد؟ وهو يعلم أنه قد لا يريد إلا شربة ماء أو رؤية حبيب يعز عليه فراقه!!

قلت: إن عروة يدرك أن الوقت المتبقى من الليل قصير لذلك كان جوابه: "ألهو إلى الإصباح آثر ذى أثير" إنه أراد أن يقضى ما تبقى من الليل مع تلك الحبيبة، يلهو معها إلى الإصباح؛ إنه لن ينام فى هذه الليلة وهو يظن أنها كذلك، وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يدرك غير ذلك وليس عنده أحب من ذلك لذلك قال: "آثر ذى أثير" يعنى: أول كل شىء؛ لأنه آثره على غيره فهذا ما سيبدأ به فعلا ويتلهى به عما عداه!

ونلاحظ أن عروة اختار من صفاتها ما يناسب الذكريات الطويلة معها ويناسب تذكرها فى لحظات الوداع فقال:

بآنسة الحديث رضاب فيها ∴ بعيد النوم كالعنب العصير

---

(١) تراجع قصة هذه الأبيات فى الشعراء والشعراء ج٢صـ٦٧٦، ٦٧٧ وشرح ابن السكيت صـ٣٦: ٣٩والأغانى جـ٣صـ٦٠: ٦٣ .

والصفات التى ذكرها عروة ــ هنا ــ تدل علــى خبرتــه بأنوثــة المرأة؛ فالمرأة كما تمدح بحسنها وجمالها تمدح أيضا بلين كلامها، وإذا اجتمع الاثنان تم الحسن فى النساء ٠

وكلام عروة فيه كنايتان: الأولى فى: "آنسة الحديث" وهذا كنايــة عن رقة أسلوبها ولين كلامها، الثانية فى "رضاب فيها بعيد النوم كالعنب العصير" وهذا كناية عن الجمال الحسى وطيب رائحة الفم٠

وبين الكنايتين مناسبة وحسن اختيار، لأن الكلام ــ فى العــادة ــ تصحبه رائحة الفم، والكناية الثانية مبنية على تشبيه فقد شبه ريقها بعد نومها فى لذته وطيب رائحته وتأثيره فيه بالخمر الذى عبر عنه: بالعنب العصير وترى الشعراء كثيرا ما يشــبهون الريــق بــالخمر، والشــهد، والرمان والتفاح وماء السحاب ... فعروة لم يخــرج عمــا عهــد عنــد الشعراء فى هذا الوصف[١] ٠

وقوله: "بعيد النوم" احتراس يبين حسن رائحة ريقها، ودوام هــذا الحسن فى الأوقات التى يظن فيها تغير الرائحة فرائحة الفم تتغير ــ فى العادة ــ بعد النوم، كما تتغير فى الصيام؛ لخلــو المعــدة مــن الطعــام ولأشياء أخرى، وأظن أن قوله فى وصفها "بعيد النوم" وصفا ثابتا لازما لها وليس خاصا بها فى تلك الليلة بالذات٠

وكلام عروة يحمل دلالات كثيرة، فقد حدثها عن أمــور تخصــهما وحدثته كذلك، وقد ردت عليه بحديث لم يؤلمه، ومن المؤكد أنها ذكــرت له كيد العطفانيات لها وأنهن كن يطلقن عليها ألقابا مؤلمة من مثل: أمة عروة وأظن أنه اقتنع تماما بكلامها وأحس فيــه بــالأنس والمؤانســة، وكلامه فى هذا السياق يحمل دلالات أخرى فقد اقترب منها غاية القــرب ثم دار بينهما ما يدور بين الأزواج، فاستعمل من الكنايات ما يدل علــى

---

(١) يراجع الغزل فى العصر الجاهلى د/ أحمد الحوفى صـ٤٥: ٤٨

مقاصده، ولم يصرح بما أراد على الرغم من كونه جاهليا صعلوكا ولك أن تدرك من كلمة "النوم" ما تشاء من الدلالات.

ويلاحظ المتأمل رقة أسلوب عروة فى أثناء حديثه عن "سلمى" وعظمة توديعه، وهكذا ترى كيف يفعل العشق فى كبار الرجال. يقول القاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى: "وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم، والغزل المتهالك، فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة، وانضاف الطبع إلى الغزل، فقد جمعت لك الرقة من أطرافها"(١).

واستمر يفصل فى كيفية حدوث تلك المؤامرة فقال:

أطعت الآمرين بصرم سلمى ∴ فطاروا فى عضاه اليستعور
سقونى النسء ثم تكنفونى ∴ عداة الله من كذب وزور

إنه يندم على ما جرى له وتمتلأ نفسه حسرة وألما، وقد اختار ألفاظا موحية تدل على ذلك منها: "الآمرين" ، "صرم سلمى"، "طاروا"، "عضاه اليستعور"، "سقونى النسء"، "تكنفونى"، "عداة الله"، فقد تكنفوه أى أحاطوا به من كل جانب، وأظهروا له ودهم وحبهم بعد أن سقوه النسء وهو: شراب يذهب العقل فالنسء كناية عن الخمر، ويؤيد ذلك رواية أخرى للبيت ذكرها سيبويه وهى قوله:

سقونى الخمر ثم تكنفونى... (٢) ويبدو أنه أسرف فى الشرب حتى اختل عقله وانحرف تفكيره ولم يدر ما يقول.

ثم وصفهم بوصف عجيب هو قوله: "طاروا فى عضاه اليستعور" أى: أسرعوا مبتعدين عنه وصاروا إلى أماكن بعيدة موحشة ولا يمكن أن

---

(١) الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى صـ١٨ طبع البابلى الحلبى.
(٢) يراجع اللسان مادتى : نسأ ويستعر .

يهتدى لمواضعهم، و"عضاه اليستعور" نوع من الشجر لا ينبت إلا فى المرتفعات ويكثر فى جبال السراة، وقد ذكر الجوهرى أن اليستعور الذى فى شعر عروة موضع، ويقال: شجر، وسواء أكان موضعا أم كان شجرا ينبت بالسراة فكلام عروة دليل على أنهم هربوا منه خوفا من معاقبته لهم(١) .

وقوله: "طاروا فى عضاه اليستعور" استعارة تمثيلية حيث شبه حالهم فى تفرقهم وسرعة انصرافهم عنه واختبائهم منه بحال طير طار إلى ذلك الشجر ليختبئ وراءه، وفى الكلام كناية عن سرعة هروبهم(٢).

و"ثم" فى قوله "ثم تكنفونى" للتراخى الرتبى، فهو يعيب عليهم أمرين فى هذا الخبر، الأول: أنهم سقوه الخمر ليذهبوا عقله ويشلوا تفكيره عن صالح أمره، الأمر الثانى: أنهم تكنفوه: أحاطوا به، وألحوا عليه، وأظهروا له ودهم، والحال الثانى أشد وأعلى رتبة فى الكيد من الأول؛ لأنه هو الخداع والكيد الحقيقى، لذلك أردفه بقوله "عداة الله"، ويجوز أن تحمل "ثم" على البعد الزمانى ، فهم سقوه الخمر ثم تركوه وقتا كافيا حتى فقد تركيزه ثم أحاطوا به وفعلوا ما أرادوه، والحمل على التراخى الرتبى فى "ثم" أولى فى فهم ترقيهم وتدرجهم فى كيدهم. وقوله: "عداة الله" منصوب على الذم(٣) .

ثم ذكر ندمه على تسرعه وعدم إدراكه لما يجرى من حوله، وأورد كلامه مؤكدا بالقسم فقال:

ألا وأبيك لو كاليوم أمرى ∴ ومن لك بالتدبر فى الأمور
إذا الملكت عصمة أم وهب ∴ على ما كان من حسك الصدور

---

(١) السابق نفس مادة "يستعر" .
(٢) حمل العبارة على الاستعارة التمثيلية أولى من حملها على التصريحية التبعية فى "طاروا" مراعاة لوصف هيئة الحال الذى كانوا فيه .
(٣) يراجع لسان العرب مادة : يستعر .

إنه يخاطب شخصا آخر فيقسم له بأبيه، أو لعله خاطب نفسه على طريقة التجريد على عادة بعض الشعراء، وكلامه وارد فى الفهم الأخير على طريق الالتفات ، وقد روى البيت بطريق آخر، وعلى كل الروايات الواردة يحمل الغرض هنا على التحسر والتندم[١] .

إن عروة بن الورد أدرك أنه تعجل ولم يدرك العواقب ولم يحسن تدبر الأمور فيذكر: لو كان حالى يوم تركت سلمى كحالى اليوم فى فهم ما خفى عنى وفى التدبر والتأنى، لأبقيت سلمى "أم وهب" فى عصمتى، ولما أمكنت أحدا منها مهما كان من "حسك الصدور".

والحسك: نبات له شوك صلب تعلق ثمرته بصوف الغنم، والعرب تطلق حسك الصدور على الحقد والعداوة، والعبارة فيها إضافة المشبه به للمشبه وأصل الكلام: صدور كالحسك، وهذه الصورة التشبيهية فيها كناية عن الحقد والعداوة، وهى تبين جوانب الكيد الخفى الذى علق واستقر فى تلك الصدور الحاقدة وهو مع كل ذلك ــ لو تدبر الأمر ــ لما تركها تفارقه.

وجاء قوله: ومن لك بالتدبر فى الأمور معترضا بين الشرط وجوابه ليكون اعتذارا منه يبعد اللوم عنه فهو لم يملك تدبر الأمور ــ مثل غيره من الناس ــ حين تدبر المكائد ، وفى تكنيتها بـ"أم وهب" دليل واضح على تقديره لها، ووفائه بعهدها، واحترامه لتاريخها، فهو ما زال يفضلها ويتمناها بالرغم من كل العداوات التى لحقته من أجلها[٢].

ويحدثنا عروة الصعاليك عن زوجة أخرى من زوجاته يكنيها بـ"أم حسان" ولا ندرى أهى "سلمى" التى فارقته بالمدينة والتى كناها بـ"أم

---

(١) يراجع الشعر والشعراء جـ٢ صـ٦٧٧ وشرح الديوان صـ٣٩
(٢) يراجع شرح الأبيات فى ديوانه صـ٣٩ ويراجع اللسان والقاموس المحيط مادة "حسك".

وهب" فى الأبيات السابقة أو كانت امرأة أخرى من اللواتى فارقهن فيقول:

١- عفت بعدنا من أم حسان غضور ∴ وفى الرحل منها آية لا تغير
٢- وبالغر والغراء منها منازل ∴ وحول الصفا من أهلها متدور
٣- ليالينا إذ جيبها لك ناصح ∴ وإذ ريحها مسك ذكى وعنبر[١]

إن "غضور" وهى: ثنية "طريق فى الجبل" فيما بين المدينة إلى بلاد خزاعة كما ذكر ابن السكيت . قد عفت، أى: درست ولم تعد مسكنا للشاعر؛ لأن أم حسان فارقتها، فلما خلت منها لم يعد يسكنها عروة.

أما رحله أى: مركب بعيره وما يستصحبه من الأثاث فقد بقيت فيه علامة وأثر من آثار حبيبته لعله كان شيئا مما صنعته له من نسج أو غير ذلك، هذا الأثر جعله وفيا لها على الدوام فهو يتذكرها ويحن إليها، ثم تذكر منازل أهلها بالغر والغراء حين كانت عامرة بأحبابه والغر: أطم بالمدينة لبنى عمرو بن عوف مكانه منارة مسجد قباء، أما الغراء فهى: يثرب، التى سميت بعد ذلك بالمدينة المنورة، إن هذه المنازل حركت ذكرياته ففيها كانت تسكن "أم حسان" مع أهلها فى منازلها العامرة بأهلها قبل الرحيل.

وقد ذكر شارح الديوان أن "الصفا": موضع أو جبل، وأن المقصود بـ"متدور" مكان دوار والدوار: نسك كانوا يطوفون به فى الجاهلية[٢].

ولا يبعد ــ عندى ــ أن يكون "الصفا" المذكور فى بيت عروة هو الجبل المعروف بجوار البيت العتيق، ولعل مما يؤيد ذلك الفهم ذكره الصفا بـ"أل" الدالة على العهد، وهناك من ذكر أن التدوار من أسماء البيت الحرام، فذكره الصفا فى سياق متدور يؤكد ذلك.

---

(١) الديوان صـ٥٤ .
(٢) يراجع شرح الديوان صـ٥٤ ويراجع القاموس المحيط: غرر.

فهو يذكر بعض عادات العرب فى الجاهلية من حجها البيت وطوافها بالصفا والمروة، وقد بين القرآن أن هذه شعيرة قديمة، ولا جناح على المؤمنين أن يطوفوا بهما، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ ﴾ البقرة: ١٥٨ ، وقد ذكر المفسرون فى سبب نزول الآية أن الأنصار قبل أن يسلموا كانوا إذا أهلوا لمناة تحرجوا أن يطوفوا بالصفا والمروة فى الجاهلية فسألوا رسول الله (ﷺ) عن الطواف بهما فأنزل الله هذه الآية، وقيل: إن الناس كانوا يرون أن الطواف بهما من أمر الجاهلية فلما كان الإسلام أمسكوا عن ذلك فأنزل الله الآية[١] .

ويجوز أن يكون "الصفا" اسم موضع أو جبل يتنقل فيه أهل محبوبته ويدورون حوله على عادة من يسكن فى مكان ما فهو يتحرك فيه ويدور حول مواضعه.

أو لعله أراد نسكا معينا كانوا يطوفون به فى الجاهلية ــ كما ذكر شارح الديوان ــ فقد كان للعرب فى جاهليتهم أصنام كثيرة وكانت لهم كعبات كبيرة يحجون إليها[٢] .

ثم ذكر أجمل ذكرياته مع تلك الحبيبة فى تلك الليالى الساهرة السعيدة وذلك فى قوله: "إذ جيبها لك ناصح" و"إذ" بمعنى الوقت والحين، والجيب فى الأصل: طوق القميص أو الثياب، وهو أطلقه هنا على القلب، على طريق المجاز المرسل بعلاقة "المجاورة"؛ فجيب القميص يكون مجاورا للقلب، وقد يعبر عن القلب بالثياب كله كما فى قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر/ ٤] وكما فى قول عنترة بن شداد:

فشككت بالرمح الأصم ثيابه[٣]

---

(١) يراجع تفسير القرطبى جـ١ صـ٦٦٦ والبحر المحيط جـ١ صـ٦٣١ وتفسير ابن كثير جـ١ صـ١٩٨، ١٩٩ .

(٢) يراجع العصر الجاهلى لشوقى ضيف صـ٨٩ : ١٠٣ .

(٣) يراجع شرح القصائد السبع لابن الأنبارى صـ٣٤٧ ويراجع علوم البلاغة للمراغى صـ٢٣٣، ٢٣٤ ، واللسان مادة: غرر.

والعبارة فيها كناية عن نقاء القلب وصفاء الود، وفى البيت صفة التلوين والالتفات فهو لم يقل: إذ جيبها لى ناصح ولكنه ــ كما تــرى ــ التفت من التكلم إلى الخطاب، ولعله أراد أن يؤكد على أن هــذه المــرأة مطبوعة على الخير والصلاح، فهى تنصح الجميع وليس نصحها قاصرا على عروة وحده، بل يتعدى إلى كل من يمكن نصحه، وهو بهذا يصــف جمال وصلاح باطنها، ثم انتقل إلى وصف جمالها الحسى الظاهر فــأتى بهذه الصورة التشبيهية التى حذف فيها الوجه والأداة ليؤكد ويبالغ فــى التشبيه فقال: "وإذ ريحها مسك ذكى وعنبر" والذى يلوح فى البيت أنــه يشبه طيب رائحتها بطيب رائحة المسك والعنبر، فهو يشــبه محسوســا بمحسوس ووجه الشبه محسوس وهو: طيب الرائحة وانتشارها ويــدل التشبيه على قبول نفسه لها وميله الشديد نحوها؛ لأنها كانــت تمتعــه بجسد نظيف مضمخ بأطيب الطيب وهذا ظاهر فى وصف المسك بقولــه: ذكى أى ساطع الرائحة سريع الانتشار، وهو بهذا جمــع بــين مــدحها بالصفتين: المعنوية والحسية.

ولا يبعد ــ عندى ــ أن يكون "ريحها" استعارة تصريحية أصــلية للسيرة الحسنة فى الناس، وشهرتها بحسن الصفات، كما تقول: ســيرة فلان كالفل أو كالعطر، وإنما دعانى لهذا القول أنه ذكر ذلك فــى ســياق الجيب، والنصح والصفا، والدوار، فظننت أنه أراد أن يؤكد على شــرفها وعلو مكانتها وحسن سيرتها وأنها من بيت صلاح وعبادة مشهورة على عادة أهل الجاهلية وأن مدح المرأة ــ حين المفارقة ــ بحسن الســيرة ونقاء السريرة أعظم من مدحها بجمالها الحسى وكأنه أراد أن يؤكد أنها شريفة باقية على حفظ العهود وأنه يأمل أن يعود يوما إليها. وعلى كــل فكلامه دليل واضح على أن أم حسان كانت ذات مكانة فى قلبــه وهــذا يظهر تقديره ووفائه للمرأة واحترامه الكبير لها[١] .

---

(١) راجع شرح الأبيات فى ديوانه صـ٥٤، ٥٥ .

الفصل الثالث
بلاغة التشبيه فى معان أخرى

استعمل عروة بن الورد التشبيه فى أثناء حديثه عن أشياء أخرى وردت فى مواضع متفرقة من ديوانه وجاء حديثه عنها فى أبيات قليلة؛ من أجل ذلك رأيت أن أجمع ذلك كله فى فصل واحد، وكان من ذلك:

تصويره للسحاب وصوت البرق فى قوله:

أرقت وصحبتى بمضيق عمق ∴ لبرق من تهامة مستطير
إذا قلت استهل على قديد ∴ يحور ربابه حور الكسير
تكشف عائذ بلقاء تنفى ∴ ذكور الخيل عن ولد شفور
سقى سلمى وأين ديار سلمى ∴ إذا حلت مجاورة السرير[1]

وهذه المقطوعة الشعرية ــ كما ترى ــ فى وصف البرق والسحاب، وفيها ــ أيضا ــ حنين واضح إلى "سلمى" التى دعا عروة لديارها بالسقيا، وهى مقطوعة شعرية رقيقة الألفاظ، سلسة الأسلوب عذبة النغم، منسجمة الإيقاع ، صالحة للغناء بل هى الغناء كله، فلا تقرأها إلا وترى فيها لحنا وتطريبا، ولا تسمعها إلا وترى ذلك، وهذه ميزة تراها فى الشعر الجاهلى، أو على الأرجح تراها فى أغلبه، وما قلته فى هذه المقطوعة الشعرية وصف صالح لكل ما مضى وما يأتى من شعر عروة بن الورد وكنت لا أريد أن أذكر هذه الخصوصية من النغم فى شعر عروة بن الورد؛ لثقتى أن هذا أمر شائع ومعروف يدركه كل من تأمل أو قرأ فى أشعار الجاهليين عموما، ولكن دعا إلى ذلك إحساس لم أستطع أن أكتمه وأنا أدندن بهذه الأبيات، ورأيت أن من حق ذلك الرجل أن أشهد لشعره بهذه الشهادة فى هذا الحين ٠

---

(١) الديوان صـ٣٦، ٣٧ ٠

وهذه الأبيات ــ كما ترى ــ فيها ذكر لكثير من المواضع التى اعتادها عروة فى حياته وفيها ذكره لسلمى وتكريره لاسمها وواضح أنه قالها وهو مشغول بالبرق الذى ملأ سماء تهامة . يقول: "أرقت وصحبتى بمضيق عمق" أى: بقيت سهران الليل كله، فهو لم يذق النوم فى تلك الليلة "لبرق من تهامة مستطير" أى بسبب ذلك البرق المنتشر فى الأفق فوق بلاد تهامة.

وعروة يحكى لنا ما دار فى نفسه حين شاهد ذلك البرق فيقول: "إذا قلت استهل على قديد" يعنى حين رأى انصباب المطر فوق "قديد" وهو مكان قريب من مكة، يمنى نفسه ويسعدها أن المطر بدأ فى هذه الأرض، ولكن عروة لم يجد المطر دائم الانصباب بل وجده متقطعا ووجد حال السحاب متغيرا فقال: "يحور ربابه حور الكسير" أى يختفى سحابه الأبيض القريب من الأرض، ثم يعود ببطء فيظهر من جديد، فهو يصور لنا حركة هذا السحاب البطيئة بحركة الكسير، أى: المكسور، ووجه الشبه البطء وعدم انتظام الحركة.

ثم أضاف عروة صورة تشبيهية أخرى تبين حال ذلك السحاب وبرقة فقال:

تكشف عائذ بلقاء تنفى ∴ ذكور الخيل عن ولد شفور

وهذه الصورة ــ كما ترى ــ طريفة، عجيبة، بعيدة غاية البعد، أعنى بذلك كله المشبه به الذى اختاره عروة فى هذا التشبيه المحذوف الأداة.

ونحن نعلم من خلال تأملنا فى شعر عروة أنه لم يستعمل التشبيه المحذوف الأداة إلا قليلا وكذلك حال التشبيه الضمنى ، هذه الصورة بعيدة غاية البعد ولا يمكن حضورها ــ إطلاقا ــ فى الذهن عند ذكر المشبه، إن عروة يشبه سرعة ظهور البرق ولمعانه وسط سواد السحاب

ببياض بطن هذه الفرس حين يظهر إثر رفعها رجليها ورمحها ذكور الخيل عن ولدها الصغير ٠

والشفور هى التى تشفر برجليها أى: ترفع الرجلين جدا، وإنما يعنى رمحها وهى صفة من صفات العائذ أى: الفرس الحديثة النتاج كما أن "بلقاء" صفة أيضا للعائذ والبلقاء هى الفرس التى فيها سواد وبياض٠

ثم انتقل عروة وهو فى هذا الحال المشحون بالأمل والرجاء فى نزول المطر الذى يبعث فى الأرض الخصب والحياة، انتقل يدعو بالسقيا إلى ديار محبوبته "سلمى" التى لم تغب عن ذكره فى كل الأوقات وفى هذا الوقت بالذات؛ لأن المحب الصادق فى حبه يتذكر من أحبه فى كل أوقات سعده، يدعو عروة بالسقيا لديار سلمى وهو يعلم أنها بعيدة عنه وقد يستحيل وصول عروة إليها فيقول:

سقى سلمى وأين ديار سلمى ∴ إذا حلت مجاورة السرير؟!

إن عروة مع دعائه لديار "سلمى" يورد استفهاما "وأين ديار سلمى" وهذا الاستفهام ليس على حقيقته؛ فهو يعلم أين تقع ديار "سلمى" ويعلم كيف تتنقل وسطها، ويعلم أيضا الأماكن التى تطيل المكث فيها، ولكنه يستفهم مستبعدا مكانها الذى تسكنه عن مكانه الذى هو فيه الآن، وهو يتمنى لو كانت قريبة منه، ويشتاق لذهاب المطر يسقى ديارها وهى مجاورة "السرير" وهو اسم موضع ببلاد تميم، أو بنجد لقبيلة أسد، أو هو موضع فى بلاد كنانة[١] ٠

"والسقيا أمنية لها فضل علوق بالنفس العربية، وكأنها هى أقصى ما يرجوه الإنسان إلى ما يحب؛ لأن فيها الماء والنبات، وهما عماد حياة

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت صـ٣٨ وينظر اللسان والقاموس المحيط مادة: سرر ٠

الحيوان والإنسان ، هى دعاء بالرغد والرفاهية والحياة الناعمة فى الخير الوفير وقد جاوز الدعاء بالسقيا الديار وساكنيها إلى الأجداث ومثوى الأحبة، فكم دعا الشعراء بالسقيا إلى هذه الأودية حتى تفيض فى جوانبها الحياة"[١].

فعروة دعا لديار سلمى بالسقيا؛ لأنه يحب لها الحياة والعيش الرغيد، وهو يدرك قيمة المطر وعظيم نفعه فى تلك الأرض التى قد يقتلها الجفاف إذا انعدم مطرها أو قل، فهذه الظروف والأحوال الخاصة التى كان يعيشها سكان الجزيرة العربية، تختلف كثيرا عن حياة من يسكنون بلاد الأنهار العذبة الجارية، فقد ينسون المطر ولا يذكرونه إلا قليلا أما سكان جزيرة العرب فأمرهم يختلف وهذا جعل تذكر عروة لسلمى ودعاءه لديارها فى هذا الوقت شيئا عظيما فى باب الوفاء.

ثم انتقل عروة لوصف صوت الأسد وما يحدثه من رعب وهلع فى كل من سمع زئيره فقال:

يظل الأباء ساقطا فوق متنه ∴ له العدوة الأولى إذا القرن أصحرا
كأن خوات الرعد رز زئيره ∴ من اللاء يسكن العرين بعثرا[٢]

وكلام عروة ــ هنا ــ دليل واضح على شجاعته فهو لا يخشى المخاطر المخيفة، وفيه دليل على تنقل الصعاليك فى البلاد البعيدة الموحشة طمعا فى لقمة العيش التى حرمهم منها الأغنياء فى تصورهم.

إنه يذكر أن "الآباء" وهو :القصب الموجود فى الأجمة والغياض ــ وهى الأماكن التى تختفى فيها الأسود فى العادة ، هذا "الأباء" يظل ساقطا فوق متن الأسد أى: ظهره فى تلك الأرض المخيفة التى لا يقترب منها البشر، ثم ذكر من صفات الأسد: "له العدوة الأولى إذا القرن أصحرا"

---

(١) التصوير البيانى صـ٧١ د/ محمد أبوموسى.
(٢) الديوان صـ٤٢ .

والقرن: النظير والكفؤ، وأصحرا: برز فى الصحراء فهذا الأسد يبادر العدو فيفترسه بسرعة فائقة بمجرد رؤيته له٠

وما ذكره عروة فى هذين البيتين تقرير وتفصيل للمخاوف التى أراد أعداؤه أن يوقعوه فيها، وقد صرح بذلك فى قوله:

تبغانى الأعداء إما إلى دم ∴ وإما عراض الساعدين مصدرا(١)

فأعداؤه أرادوا له القتل على يد البشر أو على يد الأسود فقوله: "عراض الساعدين مصدرا" كناية عن الأسد فهو عريض الصدر والساعدين، وواضح من كلام عروة بن الورد أنه كان يمثل خطرا كبيرا على أعدائه وأنهم حاولوا مرارا أن يبعدوه بكل الطرق وهذا واضح فى قوله:

تحل بواد من كراء مضلة ∴ تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا(٢)

"وكراء": أرض ببيشة كثيرة الأسد، فسلمى تسكن فى هذه الأرض التى يضل فيها الناس، وتحاول بذلك أن أهاب موضعها ولا أقدر على الاقتراب منها، ويبدو أنها فرت مع قومها إلى هذه الأرض البعيدة حين فارقته فى تلك القصة العجيبة التى تناولها عروة فى هذه القصيدة التى بدأها بقوله:

تحن إلى سلمى بحر بلادها ∴ وأنت عليها بالملا كنت أقدرا(٣)

ثم استمر عروة فى ذكر صفات الأسد حتى أتى بهذا التشبيه المقلوب فقال:

كأن خوات الرعد رز زئيره ∴ من اللاء يسكن العرين بعثرا(٤)

---

(١) الديوان صـ٤٢ ٠
(٢) الديوان صـ٤١ ٠
(٣) السابق نفس الصفحة٠
(٤) السابق صـ٤٢ ٠

إن الأصل فى التشبيه أن يشبه الناقص بالكامل فتكون الصفة فى المشبه به أظهر وأكمل وأشهر منها فى المشبه وعلى هذا الاعتبار فالأصل أن يشبه عروة زئير الأسد بصوت الرعد . ولكنه أحس أن هذا تشبيه عادى ومألوف، وليس فيه براعة أو مبالغة فاحتال بعض الاحتيال وتصرف فى التشبيه وأعمل فكره فيه حتى يضفى عليه شيئا من الغرابة والبراعة فقلب التشبيه وجعل صوت الأسد هو الأصل الذى تلحق به الأصوات الشديدة المرعبة حتى صوت الرعد فشبه صوت الرعد فى قوته وارتفاعه وما يحدثه فى القلوب من هلع وفزع بصوت الأسد، ووجه الشبه الشدة والرهبة وارتفاع الصوت.

والتشبيه المقلوب ــ كما هو مقرر عند البلاغيين ــ يقصد منه إيقاع المتكلم فى وهم السامع أن المشبه به ــ لفظا ــ وهو الذى كان فى الأصل مشبها أتم فى وجه الشبه من المشبه، وهذا من غلبة الفروع على الأصول كما عبر عنه ابن الأثير، وفيه مبالغة واضحة وتصرف مقصود من المتكلم[١] .

وهذه الصورة الطريفة التى أبدع فيها عروة بن الورد تضاف إلى مثيلاتها من الصور الكثيرة الأخرى التى أوردها فى شعره والتى تدل على أنه كان يتأنى ويدقق ويختار صوره بعناية وأن التشبيه لم يكن ــ عنده ــ عملية فنية سريعة كما ذكر بعض الباحثين[٢].

وتحدث عروة الصعاليك عن المنايا التى تدرك الناس لا محالة وأنه خاطر كثيرا وسار فى أماكن مظنة الهلاك فقال:

ألم تعلمى يا أم حسان أننا ∴ خليطا زيال ليس عن ذاك مقصر

---

(١) يراجع عروس الأفراح لابن السبكى ضمن شروح التلخيص جـ٣ صـ٤٠٧ ، ويراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٠٦، ٣٠٧ وشرح الديوان صـ٤٢ .

(٢) الشعراء الصعاليك د/ يوسف خليف صـ٢٩٣، ٢٩٤ .

وأن المنايا ثغر كل ثنية ∴ فهل ذاك عما يبتغى القوم محصر؟
وغبراء مخشى رداها مخوفة ∴ أخوها بأسباب المنايا مغرر
قطعت بها شك الخلاج ولم أقل ∴ لخيابة هيابة كيف تأمر؟ (١)

إنه يوجه إلى زوجته التى كناها بـ"أم حسان" هذا الاستفهام التقريرى "ألم تعلمى"؟ وهى لا تنكر قوله: "أننا خليطا زيال" فهى تعلم أن البشر جميعا ومنهم الأزواج يختلطون، وأن الفراق أمر حتمى "ليس عن ذاك مقصر" أى: لا مفر من ذلك ولا تقصير فى وقوعه، ولكنه أراد من هذا الاستفهام أن يذكرها بتلك الحقيقة حتى تقر بها فيصل من وراء ذلك إلى تسلية نفسه، وتسلية حبيبته "أم حسان" التى ذكرها فى قوله: "عفت بعدنا من أم حسان غضور" فى مطلع هذه القصيدة(٢) ، والملاحظ على عروة أنه يحترم المرأة ويتذكرها فى عموم أحواله وأنه يتلذذ بذكرها ويكرر ذكر زوجاته كثيرا فى شعره.

وقد قرر عروة حقيقة هذا الفراق وحتميته، فأتى بهذه الصورة التشبيهية الفريدة فقال : "وأن المنايا ثغر كل ثنية" وهو تشبيه بليغ حذفت منه الأداة ووجه الشبه، وقد لاحظنا أن عروة لم يحذف أداة التشبيه فى شعره إلا فى مواضع قليلة، إنه هنا يشبه المنايا فى حتمية وقوعها وإدراكها البشر بالفتحة أو الفرجة التى تكون فى ثنيات الجبال والتى يلزم على السائر العبور منها والمرور عليها، وهذا التشبيه وإن كان مأخوذا من بيئته التى عاشها وهى كثيرة الجبال إلا أنه ــ مثل كل تشبيهات عروة ــ بعيد غريب ونادر عجيب لأن صورة المشبه به بعيدة الحضور فى الذهن عند ذكر المشبه.

ثم أتى عقب هذه الصورة التشبيهية بهذا الاستفهام "فهل ذاك عما يبتغى القوم محصر؟" وهذا الاستفهام بمعنى النفى يعنى: وقوع المنايا

---

(١) ديوان عروة صـ٥٥ .
(٢) السابق صـ٥٤ .

وشدة خوف الناس منها لم يمنعهم من السعى فى الحياة وراء مـــآربهم، وكأنه بهذا الاستفهام يذكر مبررا لغزواته وغاراته هو ورفاقه الصعاليك، بأنهم يفعلون ذلك ويقدمون عليه وهم مؤمنون بأخطاره وسوء عواقبه، لكنهم مثل كل الناس حيث علموا بحقيقة الموت ولكنهم لم يتراجعوا عن مقاصدهم وحوائجهم بالرغم من كون الإقدام عليها مظنة الهلاك.

ولما قرر عروة هذه الحقيقة قال بعدها :

وغـبراء مخشـى رداهـا مخوفـة ∴ أخوهـــا بأســـباب المنايـــا مغـــرر
قطعت بها شك الخـلاج ولم أقـل ∴ لخيابـــة هيابـــة كيـــف تـــأمر؟

فقد قطع عروة الأرض الواسعة الموحشة التـــى يخشـــى النـــاس المرور بها وكنى عن نفسه بـــ"أخوها بأسباب المنايا مغرر" فهـــو أخـــو هذه الغبراء؛ لأنه كثير السير فيها ملازم لها يعرفها وتعرفه وكأن بينهما رحم تربطهما وكلامه تعريض بغيره ممن لم يجرؤ على السير فى تلـــك الغبراء، إن عروة يسير فيها وهو واثق أن أسباب الموت قد تأتيه فجأة على حين غرة ، إنه قطع بها "شك الخلاج" يعنى سار فيها قويا شـــجاعا مع كل ما خالج نفسه ووقع فيها من هواجس وأحاسيس وأفكار.

وما ذكره هنا دليل على صدقه فهو يعلن لنا عما وقع فـــى نفســـه وهو يسير فى هذه الأرض؛ لأن البطل الشجاع الجرئ المقدام قـــد يمـــر بالمكان أو يدخل المعركة وهو لا ينكر خطورة ما يقدم عليه ولكنه يخفى كل ذلك ويغلبه حتى يمضى فى وجهته.

إن عروة حين سار فى تلك الأرض لم يستعن بأى شخص؛ لأنـــه يرى أن كل امرئ غيره لا يجرؤ على السير فيها، فغير عـــروة "خيابـــة هيابة" من أجل ذلك لم يشأ عروة أن يسأل أحدا ليستعين بفكره أو يقتدى بأمره، ولست أدرى أكان عروة يعرض برفاق له فى هذه الرحلـــة ، أو كان يفتخر بنفسه أنه وحده الذى كان يسير فيها؛ لأن غيره لـــم يرافقـــه

لهول ذلك الطريق. وعلى كل حال فكلامه واضح الدلالة على شجاعته وكامل جراءته.

والهاء فى "هيابة وخيابة" هى الهاء المؤكدة التى تؤكد الصفة، وهى التى يسمونها هاء المبالغة كما فى قولنا: رجل علامة وفهامة[١].

ثم تحدث عروة عن قبيلة "نهد" وهم أخواله، وذكر أنهم لم ينالوا كثيرا من المجد بين قبائل العرب، وأنه عير بذلك كثيرا ، وكان يرى أن العار الوحيد الذى لحقه إنما جاء من كون أمه نهدية فقال:

ما بى من عار إخال علمته ∴ سوى أن أخوالى إذا نسبوا نهد
إذا ما أردت المجد قصر مجدهم ∴ فأعيا على أن يقاربنى المجد
فيا ليتهم لم يضربوا فى ضربة ∴ وأنى عبد فيهم وأبى عبد
تعالب فى الحرب العوان فإن تبخ ∴ وتنفرج الجلى فإنهم الأسد[٢]

فهو يرى أن العار الحقيقى الذى أصابه هو أن أخواله نهد وهى قبيلة لا تحلق عاليا فى سماء المجد ، وهو يريد أن يصل إلى أعلى درجات المجد والشرف ولم يتحقق له ذلك بسبب هذا النسب المشين فى رأيه ورأى الناس.

ثم تمنى لو كان عبدا وكان أبوه كذلك فهذا خير له من هذا النسب؛ لأن المرء قد يتحرر من عبوديته وقد يسود كما حدث مع عنترة وغيره، ولكن يصعب على المرء أن يتحرر من نسبه.

ثم وصفهم بهذه الصورة التشبيهية التى جاءت بأسلوب المقابلة التى تجلى المعنى وتوضح المقصود وتميز المعانى بذكر أضدادها فقال:

تعالب فى الحرب العوان فإن تبخ ∴ وتنفرج الجلى فإنهم الأسد

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت صـ٥٥، ٥٦ .
(٢) الديوان صـ٣٠ .

فهم مثل الثعالب فى الحرب العوان أى: التى تتكـــرر ولا تنقطـــع، ففيهم المراوغة والهروب وعدم وجود العزيمة عند اللقاء، "فـــإن تـــبخ وتنفرج الجلى فإنهم الأسد" وهذه صورة أخرى مقابلة للصورة الأولـــى، حيث شبههم حين توقف المعارك وزوال الشـــدائد بالأســـود فـــى طلـــب الزعامة ونيل الغنيمة وحب السيطرة.

وهاتان الصورتان محذوفتا الوجه والأداة ليزيد المبالغة فى المعنى الذى أراده، وانظر كيف أتى بالمقابلة بين المعانى فقد قابل بين الثعالـــب والأسد وبين اشتعال الحرب وتوقف القتال. وهو بهذه المقابلة يكشف لنا عن الألم النفسى الذى عاشه بسبب أخواله وأنه ــ حقـــا ــ غيـــر راض عنهم؛ لما فيهم من صفات ذميمة فى قبائل العـــرب. إن المقابلـــة التـــى اختارها والحقيقة التى رأى أخواله فيها تبرز لنا طموحات وأحلاما كبيرة كانت عند هذا الرجل إنه كان يحب ويتمنى لو كان أخواله أسودا وكـــانوا أصحاب سيادة وشهرة فى قبائل العرب وهذه الأمنية هى فـــى الحقيقـــة رسم لشخصية عروة بن الورد فقد كان يعد نفسه زعيما عـــالى الهمـــة وكان يكره أن يكون أقل من ذلك ويأسف على هذه الخسارة التى لحقتـــه من جهة أخواله.

وهذه المشكلة النفسية ظلت تؤرق عروة طوال حياته فقد كان دائم السخط على هذه الصلة التى ربطت بين أبيه وأمه، واستمر يعلن هجـــاء أخواله؛ لأن قبيلة نهد كانت أقل شرفا من قبيلة عبس؛ لأسباب كثيرة لم تصل إلينا أخبارها[١].

وفى موضع آخر يتحدث عروة بن الورد عن الكيد والحقد والعداوة التى كانت توجه إليه من جهة تعييره بأمه مرة، ومن جهة غناه وفقـــره مرة أخرى فيقول:

---

(١) يراجع شرح الديوان صـ٣٠ ويراجع الشعراء الصعاليك صـ٣٢٢

هـم عيرونـى أن أمـى غريبـة ∴ وهـل فـى كـريم ماجـد مـا يعـير؟!
وقد عيرونـى المـال حـين جمعتـه ∴ وقـد عيرونـى الفقـر إذ أنـا مقـتر[1]

وهذا الألم النفسى الذى كان يوجع عروة مما عير به، كان عـروة يراه تجنيا عليه فى كثير من الأحيان، وهذا ما نفهمه من دلالة الاستفهام فى قوله: وهل فى كريم ماجد ما يعير؟!

ومعنى الاستفهام هنا الإنكار والنفى وفيه أيضا تعجب مما حملـوه عليه، ومعنى كلامه: ليس فى واحد مثلى حاز مجد الآباء ومجد الفعال ما يعير به، فأنا ماجد كريم الآباء وهذا كفاية فى الشرف وإبعاد العار، ثـم ذكر أنه نال حقد قومه فقد عيروه فى جميع أحواله: حين فقره، وحـين غناه، وهذا الألم النفسى الذى أعلن عنه عـروة يبـين فسـاد الحيـاة الاجتماعية عند العرب؛ لأنها قامت على الضغائن والأحقاد.

وهجا عروة بن الورد بنى أكثم من أنمار ووصفهم بالبخل فقال:

أخـذت معاقلـها اللقـاح لمجلـس ∴ حـول ابـن أكـثم مـن بنـى أنمـار
ولقـد أتيـتكم بليـل دامـس ∴ ولقـد أتيـت سـراتكم بنهـار
فوجـدتكم لقحـا حبسـن بخلـة ∴ وحبسـن إذ صـرين غـير غـزار[2]

اللقاح: هى النوق ذات اللبن ، وهى جمع لقحـة وهـى: الناقـة الحلوب الغزيرة اللبن، هذه النوق تأخذ معاقلها يعنـى تعقـل وتحـبس وتحرز أمام بيت ابن أكثم الأنمارى لكى تمنع عن السائلين، وكان رجـلا بخيلا يمنع نحر هذه النوق ويمنع تقديم لبنها للسائلين.

ذكر عروة أنه قصدهم وطلب معروفهم فى الليل شديد الظلمة وذكر الليل هنا فيه دليل على شدة حاجته لكرمهم ومعروفهم، ثم ذكر أنه قصد أشرافهم فى وضح النهار، فهو قد طلب معروفهم فى كل وقت من الليـل والنهار والشهر والدهر فلم يصب منهم خيرا.

---

(١) ديوانه صـ٥٦ .
(٢) السابق صـ٥٩ .

ثم صور بخلهم بهذه الصورة التشبيهية فقال:

فوجدتكم لقحا حبسن بخلة ∴ وحبسن إذ صرين غير غزار

فهو يشبههم فى بخلهم ــ مع كثرة ثرائهم ــ بالنوق التى حبست ترعى الخلة، والإبل التى ترعى الخلة أقل لبنا من غيرها، ولذلك قال: "وحبسن إذ صرين غير غزار" فهذه النوق تصرى: أى يحبس لبنها فى ضرعها وحين تحلب لا تدر لبنا كثيرا لأنها لم ترع إلا الخلة.

فنفوس أولئك تعودت البخل كما تعودت النوق أكل الخلة وهذه الصورة تحتاج إلى طول تأمل؛ لأن معنى الكلام فيها أن ابن أكثم الأنمارى كثير المال قليل العطاء فلو حدث ــ فى أحوال نادرة ــ أن أعطى شيئا فعطاؤه قليل كقلة ذلك اللبن فى النوق التى لم ترع إلا الخلة[١] .

وهذا الصعلوك الشجاع رقيق القلب كثير البكاء أمام الذكريات التى تحرك العواطف وتستدعى الأحاسيس وهذا واضح فى قوله:

ألم تعرف منازل أم عمرو ∴ بمنعرج النواصف من أبان
وقفت بها ففاض الدمع منى ∴ كمنحدر من النظم الجمان[٢]

إنه يجرد من نفسه شخصا فيخاطبه على عادة الشعراء، ثم يلتفت فيتحدث بطريق التكلم، أو لعله كان يخاطب رفيقا له فى الحقيقة، ويسأله هذا السؤال التقريرى ألم تعرف منازل أم عمرو؟ وهذا السؤال التقريرى واضح الدلالة على شهرة منازل أم عمرو وأنها معروفة فى "منعرج النواصف من أبان" وأبان: اسم جبل، والمنعرج أماكن ملتوية كثيرة المنعطفات والانحناءات؛ لأنها كانت بالنواصف أى أماكن كثيرة الصخور

---

(١) يراجع شرح ابن السكيت صـ٥٩، ٦٠ .
(٢) الديوان صـ٨٨ .

فى أوائل الجبال تجرى بها المياه فى هذه الأراضـــى الرحبـــة الممتـــدة فيحدث تعرج وانحناء فى هذه الأماكن ٠

إنه يسترجع الذكريات حين مروره بهذه الأمـــاكن فيبكـــى كثيـــرا ويصور دموعه فى هذه الصورة الطريفة المضيئة اللامعة "ففاض الدمع منى كمنحدر من النظم الجمان" إنه يشبه دموع عينيه فى صفائها وتتابع نزولها بتتابع سقوط حبات عقد منظوم من اللؤلؤ[١] ٠

وصورة عروة هنا مثل مثيلاتها من صوره التى ذكرها فى أثنـــاء حديثه عن أزواجه ومحبوباته من النساء، فهو يصرح باســـم محبوبتـــه وفيه دليل على تلذذه الواضح بهذا ودليل على وفائه لمحبوبته وأنه كان لا يتبذل ولا يأتى بالفحش فى حديثه عن النساء ٠

ويذكرنا عروة بشبابه وقوته وكيف غيرته الوقائع والسنين الطوال وكيف كانت تخاطبه النسوة بعد أن كبر سنه فيقول:

يدعوننى كهلا وقد عشت حقبة ∴ وهـــن عـــن الأزواج نحـــوى نـــوازع
كـأنى حصـان مـال عنـه جلالـه ∴ أغـــر كـــريم حولـــه العـــوذ راتـــع[٢]

فهو يذكر أن هناك من النسوة من عيرنه بكبر السن وانتهاء عهد الشباب وذكر أنه عاش وقتا طويلا من الزمن ينال عناية النساء ، فقـــد كن يشتقن إليه أكثر من أزواجهن بل ينصرفن عن أزواجهن إليه ٠

ثم صور نفسه فى ميل النساء إليه واشتياقهن إلى رؤيتـــه بحـــال الحصان وهو الفحل من الخيل الذى ليس على ظهره شىء فهو حر طليق يلهو كما يشاء وهو جميل الشكل طيب الرائحة وحولـــه الخيـــل حديثـــة النتاج ترعى فى الخصب وتأكل كما تشاء، والصورة ــ كما ترى ــ فيها مدح له ولتلك الرفيقات فى ذلك الزمان بحسن الهيئة ورغد العيش وهى

---

(١) يراجع الديوان صـ٨٨ ٠
(٢) الديوان صـ٦٧ ٠

صورة مأخوذة من الواقع ولكنها ثرية جميلة فيها دليل على حسن شبابه وأنه كان محط أنظار النساء حتى المحصنات منهن، وبهذا نـــرى رقـــة أسلوب عروة وجمال صوره وواسع خياله وعمق أفكاره وأنه مثل غيره من شعراء الجاهلية فى قدرتهم على اللغة وتمكنهم من امتلاك زمامهـــا يصرفونها كما شاءوا فى فنون القول.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه والتابعين، وبعد:

ففى ختام هذه الدراسة الممتعة التى تعرفنا من خلالها على عروة بن الورد، وطرافة الصورة التشبيهية عنده، ورقة أسلوبه مع كونه جاهليا صعلوكا قضى ما قضى من حياته فى الإغارة والسلب والتنقل بين جبال الحجاز وثغور ثنياتها وعاش ــ هو ورفاقه ــ حياة الفقر والبؤس حتى حرم من حبل بعير، وبعران ربه فى البلاد كثير!!

ومع كل ذلك استطاع أن يتغلب على كل الصعوبات التى عرفناها والتى لم نعرفها حتى نال ما نال من الشهرة الواسعة والذكر المدوى فى جزيرة العرب، وأنه كان مدفوعا إلى الصعلكة؛ لأنها خياره الوحيد للعيش فى بلاد الحجاز فى العصر الجاهلى، أذكر بعد كل ما عرفناه عن عروة الصعاليك أهم النتائج التى أمكن التوصل إليها وتلخيصها فيما يلى:

١ - كانت الصورة التشبيهية فى شعر عروة بن الورد طريفة نادرة، وقد تصرف فى بعض صوره حتى صارت عجيبة واعتمد على التشبيه التمثيلى فى أكثر صوره ، وهذا كله دليل على أن كثرة استعماله ــ هو والصعاليك ــ التشبيه ليس لأن التشبيه عملية فنية سريعة كما ذكر أحد الباحثين، وقد أطنبنا فى بيان ذلك فى البحث.

٢ - استخدم عروة بن الورد حروف التشبيه: الكاف ومثل، وكأن، ولكنه أكثر من استعمال "الكاف" حيث وردت فى أربعة عشر موقعا، واستعمل "كأن" فى أربعة مواقع واستعمل "مثل" فى موقعين، وجاء التشبيه البليغ ــ المحذوف الوجه والأداة ــ فى ثمانى مواقع، أما التشبيه الضمنى فجاء فى موقع واحد، وكذلك التشبيه المقلوب.

٣ - أرى أن البلاغة العربية بحاجة إلى تتبع وحصر مقامات استخدام أدوات التشبيه فى الشعر الجاهلى كله؛ حتى نخرج بنتائج علمية فى ذلك ولا نعتمد على ما ذكره بعض العلماء من خصوصيات فى بعض الحروف بدون أن يقوم ما ذكروه على استقراء لكلام العرب.

٤ - كثرت صور عروة بن الورد فى شعره وتنوعت بتنوع أماكن غاراته وتنقله فى رحلاته فرأيناه يذكر: عضاه اليستعور، والرأل، والأسد، والحصان، والعوذ، والبعير، والمنيح المشهر، والعضاه، والجزور... وهذا دليل على ثراء الصورة عنده، وقدرته على التقاطها ودقته فى صياغتها كما يدل على ظهور تأثير البيئة فى شعره.

٥ - سجل عروة فى شعره جميع الأماكن التى طاف بها وحام حولها من مثل: الغر والغراء، وماوان ، ورضوى، ومضيق عمق، وتهامة، وقديد، وديار سلمى، وأرض بنى على، ودار بنى النضير، وكراء، وأبان، وذو النقير ... إلى غير ذلك من المواضع التى ذكرها فى شعره وهذا دليل واضح على كثرة تنقلاته، وطول رحلاته، وواسع علمه كما ذكر أسماء بعض القبائل وصفاتها وقد صور كل ذلك فى صور ثرية مما يجعل شعره سجلا حافلا لحياة الصعلكة وبيئة الحجاز فى العصر الجاهلى.

٦ - كان عروة حكيما خبيرا بأحوال البشر وكيف يتغيرون إن اغتنوا بعد فقر وظهر هذا واضحا فى قصة "أصحاب الكنيف" وكيف عبر عنهم بقوله "وجدتهم كما الناس"!! وكان عروة عفيفا فى شعره، صادقا، كريم النفس، وقد نالت المرأة عنده حظا عظيما من التقدير والاحترام والوفاء وهذا واضح فى حديثه عن نسائه وتكنيته لهن.

٧ - لاحظ الباحث توافق الأساليب، وتقارب المعانى واتحاد الصفات بين: عروة بن الورد، وعنترة بن شداد وهذا ليس عجيبا؛ لأنهما من قبيلة واحدة، وعاشا فى بيئة واحدة وزمان واحد كما أنهما كانا زعيمين مشهورين فى قبيلة "عبس" وفى هذا التوافق دليل على صدقهما وسمو غايتيهما. وقد ذكرنا من أشعارهما ما يؤيد ما لاحظناه.

٨ - ذكرنا المقصود بالابتذال، ومتى يحكم على الألفاظ بذلك وهل يدخل لفظ "الكنيف" الذى ذكره عروة بن الورد فى ذلك أولا؟ وأتينا بكثير من أقوال العلماء فى هذا الأمر ثم ذكرنا رأينا فى هذا الشأن.

٩ - كان أسلوب عروة عذبا رشيقا سهلا رقيقا فيه موسيقى وتنغيم وهو صالح للغناء خاصة فى أشعاره التى قالها فى أزواجه وقصصه معهن.

وبعد : فسيبقى شعر عروة الصعاليك مع غيره من شعراء الجاهلية مائدة حافلة بأطايب الثمر وهى حق مشروع لكل عقلاء البشر، ينال كل واحد منها على قدر طول باعه، وحسن تذوقه وواسع اطلاعه.

ولا أدعى لبحثى هذا أنه وصل الكمال فى بابه ولكننى آمل أن يكون ثمرة طيبة، مقبولة الطعم، وإن كانت قليلة الحجم، فتضاف إلى مثيلاتها؛ حتى تبقى مائدة الفصحى عامرة بما يشتهى من تراث أولئك العرب الخلص الذين كانوا أصلا فى الفصاحة والبراعة والبيان، وكان كل من بعدهم تبعا لهم.

والله من وراء القصد يهدى إلى سواء السبيل

دكتور
على محمد حميد حماد
مدرس البلاغة والنقد فى كلية اللغة
العربية فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

المراجع

١ - القرآن الكريم٠

٢ - أسرار البلاغة للإمام عبدالقاهر الجرجانى شرح د/محمد عبدالمنعم خفاجى ط مكتبة القاهرة ط الثالثة ١٣٩٩هـ٠

٣ - الإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة لمحمد بن على الخفاجى تحقيق د/ عبدالقادر حسين ط دار نهضة مصر٠

٤ - الأصمعيات للأصمعى تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ط دار المعارف ط الخامسة٠

٥ - الأطول للعصام ط المطبعة السلطانية ١٢٨٤هـ٠

٦ - الأغانى لأبىالفرج الأصفهانى تحقيق: د/ يوسف البقاعى وغريد الشيخ ط مؤسسة الأعلمى للمطبوعات بيروت ط أولى ١٤٢٠هـ٠

٧ - البحر المحيط للإمام أبىحيان الأندلسى تحقيق عادل عبدالمقصود وآخرين ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٩٩٣م٠

٨ - التصوير البيانى د/ محمد أبوموسى ط مكتبة وهبة ط الرابعة ١٤١٨هـ٠

٩ - تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير ط دار التراث٠

١٠ - تفسير القرطبى ط دار الغد العربى ط أولى ١٩٨٨م٠

١١ - تهذيب الخواص من درة الغواص لابن منظور الأنصارى تحقيق د/ الشريف عبدالله البركاتى ط نادى مكة الثقافى الأدبى ط أولى ١٤١٥هـ٠

١٢ - حاشية السيد الشريف على المطول مطبوعة على هامش المطول مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ٠

١٣ - الحيوان للجاحظ تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط دار إحياء التراث العربى بيروت ط الثالثة ١٣٨٨هـ٠

١٤ - خصائص التراكيب د/ محمد أبوموسى ط مكتبة وهبة ط الثانية٠

١٥ - دلائل الإعجاز للإمام عبدالقاهر الجرجانى تحقيق محمود محمد شاكر ط الهيئة المصرية للكتاب ٢٠٠٠م٠

١٦ - دلالة الألفاظ د/ إبراهيم أنيس ط مكتبة الأنجلو المصرية ط السادسة ١٩٨٦م٠

١٧ - ديوان عروة بن الورد بشرح ابن السكيت تقديم راجى الأسمر ط دار الكتاب العربى ط أولى ١٤١٤هـ٠

١٨ - سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى ط محمد على صبيح سنة ١٣٨٩هـ٠

١٩ - شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنبارى تحقيق عبدالسلام محمد هارون ط دار المعارف ط رابعة ١٩٨٠م٠

٢٠ - شروح التلخيص ط المطبعة الأميرية ط أولى ١٣١٧هـ٠

٢١ - الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى د/ يوسف خليف ط دار المعارف ط الرابعة٠

٢٢ - الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر ط دار المعارف٠

٢٣ - صحيح مسلم بشرح النووى ط دار الكتب العلمية بيروت ط أولى ١٩٢٩م٠

٢٤ - الصور البيانية للعادات الجاهلية فى المعلقات السبع للباحث بحث منشور فى حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثلاثون ١٤٣١هـ٠

٢٥ - عروس الأفراح لبهاء الدين السبكى ضمن شروح التلخيص ط المكتبة الأميرية ط أولى ١٣١٧هـ.

٢٦ - العصر الجاهلى د/ شوقى ضيف ط دار المعارف ط الثامنة.

٢٧ - علم الفصاحة العربية د/ محمد على رزق خفاجى ط دار المعارف ١٩٧٩م.

٢٨ - علوم البلاغة للأستاذ/ أحمد مصطفى المراغى ط دار القلم بيروت.

٢٩ - الغزل فى العصر الجاهلى د/ أحمد محمد الحوفى ط دار نهضة مصر ط الثالثة.

٣٠ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى تحقيق محب الدين الخطيب وآخرين ط المكتبة السلفية ط الثالثة ١٤٠٧هـ.

٣١ - الفروق الدقيقة بين مقامات الخلف والوراء فى النظم القرآنى البديع للباحث بحث منشور فى حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق العدد الثالث والعشرون ١٤٢٣هـ.

٣٢ - الفروق اللغوية لأبى هلال العسكرى تحقيق عماد زكى البارودى ط المكتبة التوفيقية.

٣٣ - القاموس المحيط للفيروزآبادى ط مؤسسة الرسالة.

٣٤ - الكشاف للزمخشرى ط دار المعرفة ـ بيروت ـ لبنان.

٣٥ - لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف.

٣٦ - المطول على التلخيص لسعدالدين التفتازانى مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ.

٣٧ - منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة ط دار الكتب الشرقية٠

٣٨ - الوساطة بين المتنبى وخصومه للقاضى على بن عبدالعزيز الجرجانى تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم وعلى محمد البجاوى ط البابلى الحلبى٠